جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل/ كلية الآداب
مجلة آداب الرافدين

مَجَلَّةُ

آدَابِ الرَّافِدَيْنِ

مجلة فصليَّة علميَّة مُحكَّمة

تصدر عن كلية الآداب – جامعة الموصل

العدد التاسع والثمانون/ السنة الثانية والخمسون
ذو القعدة – ١٤٤٣هـ / حزيران ١٦/٦/٢٠٢٢م

رقم إيداع المجلة في المكتبة الوطنية ببغداد : ١٤ لسنة ١٩٩٢
ISSN 0378- 2867
E ISSN 2664-2506

للتواصل: radab.mosuljournals@gmail.com
URL: https://radab.mosuljournals.com

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلميَّة الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانيَّة باللغة العربيَّة واللغات الأجنبيَّة

العدد: التاسع والثمانون السنة: الثانية والخمسون/ ذو القعدة – ١٤٤٣هـ / حزيران ٢٠٢٢م

رئيس التحـرير: الأُستاذ الدكتور عمار عبداللطيف زين العابدين (المعلومات والمكتبات) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

مدير التحـــرير: الأُستاذ المساعد الدكتور شيبان أديب رمضان الشيبانيّ (اللغة العربية) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

أعضاء هيئة التحرير :

الأُستاذ الدكتور حارث حازم أَيوب	(علم الاجتماع) كلية الآداب/جامعة الموصل/العراق
الأُستاذ الدكتورة وفاء عبداللطيف عبد العالي	(اللغة الإنكليزية) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق
الأُستاذ الدكتور مقداد خليل قاسم الخاتوني	(اللغة العربية) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق
الأُستاذ الدكتور علاء الدين أَحمد الغرايبة	(اللغة العربية) كلية الآداب/جامعة الزيتونة/الأُردن
الأُستاذ الدكتور قيس حاتم هاني	(التاريخ) كلية التربية/جامعة بابل/العراق
الأُستاذ الدكتور مصطفى علي الدويدار	(التاريخ) كلية العلوم والآداب/جامعة طيبة/ السعودية
الأُستاذ الدكتورة سوزان يوسف أَحمد	(الإعلام) كلية الآداب/جامعة عين شمس/مصر
الأُستاذ الدكتورة عائشة كول جلب أوغلو	(اللغة التركية وآدابها) كلية التربية/جامعة حاجت تبه/ تركيا
الأُستاذ الدكتورة غادة عبدالمنعم محمد موسى	(المعلومات والمكتبات) كلية الآداب/جامعة الإسكندريّة
الأُستاذ الدكتور كلود فينثز	(اللغة الفرنسية وآدابها) جامعة كرنوبل آلب/فرنسا
الأُستاذ المساعد الدكتور أرثر جيمز روز	(الأَدب الإنكليزي) جامعة درهام/ المملكة المتحدة
الأُستاذ المساعد الدكتور سامي محمود إبراهيم	(الفلسفة) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

سكرتارية التحرير:

التقويم اللغوي: م.د.خالد حازم عيدان – مقوم لغوي/ اللغة العربيَّة

م.م.عمَّار أَحمد محمود – مقوم لغوي/ اللغة الإنكليزيَّة

المتابعة:

مترجم.إيمان جرجيس أَمين – إدارة المتابعة

مترجم.نجلاء أَحمد حسين – إدارة المتابعة

قواعد تعليمات النشر

١- على الباحث الراغب بالنشر التسجيل في منصة المجلة على الرابط الآتي:
https://radab.mosuljournals.com/contacts?_action=signup .

٢- بعد التسجيل ستُرسل المنصة إلى بريد الباحث الذي سجل فيه رسالة مفادها أنَّه سجَّل فيها، وسيجد كلمة المرور الخاصة به ليستعملها في الدخول إلى المجلة بكتابة البريد الإلكتروني الذي استعمله مع كلمة المرور التي وصلت إليه على الرابط الآتي:
https://radab.mosuljournals.com/contacts?_action=login .

٣- ستمنح المنصة (الموقع) صفة الباحث لمن قام بالتسجيل؛ ليستطيع بهذه الصفة إدخال بحثه بمجموعة من الخطوات تبدأ بملء بيانات تتعلَّق به وببحثه ويمكنه الاطِّلاع عليها عند تحميل بحثه .

٤- يجب صياغة البحث على وفق تعليمات الطباعة للنشر في المجلة، وعلى النحو الآتي :

- تكون الطباعة القياسية على وفق المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١١)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطرًا، وحين تزيد عدد الصفحات في الطبعة الأَخيرة عند النشر داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأَشياء المشار إليها يدفع الباحث أجور الصفحات الزائدة فوق حدّ ما ذُكر آنفًا .
- تُرتَّب الهوامش أَرقامًا لكل صفحة، ويُعرَّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول ، في حالة تكرار اقتباس المصدر يذكر (مصدر سابق).
- يُحال البحث إلى خبيرين يرشِّحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويُحال – إن اختلف الخبيران – إلى (مُحكِّم) للفحص الأَخير، وترجيح جهة القبول أَو الرفض، فضلًا عن إحالة البحث إلى خبير الاستلال العلمي ليحدد نسبة الاستلال من المصادر الإلكترونيَّة ويُقبل البحث إذا لم تتجاوز نسبة استلاله ٢٠% .

٥- يجب أَن يلتزم الباحث (المؤلِّف) بتوفير المعلومات الآتية عن البحث، وهي :

- يجب أَن لا يضمّ البحث المرسل للتقييم إلى المجلة اسم الباحث، أَي: يرسل بدون اسم .
- يجب تثبيت عنوان واضح وكامل للباحث (القسم/ الكلية او المعهد/ الجامعة) والبحث باللغتين: العربية والإنكليزية على متن البحث مهما كانت لغة البحث المكتوب بها مع إعطاء عنوان مختصر للبحث باللغتين أيضًا: العربية والإنكليزية يضمّ أَبرز ما في العنوان من مرتكزات علمية .
- يجب على الباحث صياغة مستخلصين علميين للبحث باللغتين: العربية والإنكليزية، لا يقلَّان عن (١٥٠) كلمة ولا يزيدان عن (350)، وتثبيت كلمات مفتاحية باللغتين: العربية والإنكليزية لاتقل عن (٣) كلمات، ولا تزيد عن (٥) يغلب عليهنَّ التمايز في البحث.

٦- يجب على الباحث أن يراعي الشروط العلمية الآتية في كتابة بحثه، فهي الأساس في التقييم، وبخلاف ذلك سيُردّ بحثه ؛ لإكمال الفوات، أمَّا الشروط العلميَّة فكما هو مبيّن على النحو الآتي :

- يجب أن يكون هناك تحديد واضح لمشكلة البحث في فقرة خاصة عنوانها: (مشكلة البحث) أو (إشكاليَّة البحث) .
- يجب أن يراعي الباحث صياغة أسئلة بحثيَّة أو فرضيَّات تعبِّر عن مشكلة البحث ويعمل على تحقيقها وحلِّها أو دحضها علميًّا في متن البحث .
- يعمل الباحث على تحديد أهمية بحثه وأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها، وأن يحدِّد الغرض من تطبيقها.
- يجب أن يكون هناك تحديد واضح لحدود البحث ومجتمعه الذي يعمل على دراسته الباحث في بحثه .
- يجب أن يراعي الباحث اختيار المنهج الصحيح الذي يتناسب مع موضوع بحثه، كما يجب أن يراعي أدوات جمع البيانات التي تتناسب مع بحثه ومع المنهج المتَّبع فيه .
- يجب مراعاة تصميم البحث وأُسلوب إخراجه النهائي والتسلسل المنطقي لأفكاره وفقراته.
- يجب على الباحث أن يراعي اختيار مصادر المعلومات التي يعتمد عليها البحث، واختيار ما يتناسب مع بحثه مراعيًا الحداثة فيها، والدقة في تسجيل الاقتباسات والبيانات الببليوغرافية الخاصة بهذه المصادر.
- يجب على الباحث أن يراعي تدوين النتائج التي توصل إليها ، والتأكُّد من موضوعاتها ونسبة ترابطها مع الأسئلة البحثية أو الفرضيات التي وضعها الباحث له في متن بحثه .

٧- يجب على الباحث أن يدرك أنَّ الحُكْمَ على البحث سيكون على وفق استمارة تحكيم تضمّ التفاصيل الواردة آنفًا، ثم تُرسل إلى المُحكِّم وعلى أساسها يُحكَّم البحث ويُعطى أوزانًا لفقراته وعلى وفق ما تقرره تلك الأوزان يُقبل البحث أو يرفض، فيجب على الباحث مراعاة ذلك في إعداد بحثه والعناية به .

تنويه:

تعبِّر جميع الأفكار والآراء الواردة في متون البحوث المنشورة في مجلتنا عن آراء أصحابها بشكل مباشر وتوجهاتهم الفكريَّة ولا تعبِّر بالضرورة عن آراء هيأة التحرير فاقتضى التنويه

رئيس هيئة التحرير

المحتـويـات

العنـوان	الصفحة
بحوث اللغة العربية	
الاغتراب في شعر صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) أحمد حسين محمد الساداني	١ - ٣٦
مواجهة أَسى الطلليَّة سجى حازم خلف وإبراهيم جنداريّ جمعة	٣٧ - ٥٨
التصوير البياني في ديوان جسر على وادي الرماد للشاعر ذنون يونس مصطفى هبة محمد محمود العبيديّ ومازن موفق صديق الخيرو	٥٩ - ٨٠
الشاهد النحوي الشعري في "شروح اللُّمع لابن جنّيّ(ت٣٩٢هـ)" معجمٌ وتوثيق - باب كان وأخواتها والمشبهات بليس أُنموذجًا- خالدة عمر سليمان وصباح حسين محمد	٨١ - ٩٢
دلالة أوصاف (البيت) في القرآن الكريم دراسة في ضوء علم اللغة الاجتماعي دلالة أوصاف (البيت) في القرآن الكريم (العنوان الثانوي) مُنى فاضل الحلاوجي	٩٣ - ١٢٠
استدعاء الشخصيات في شعر أبي نواس مطير سعيد عطية الزهرانيّ	١٢١ - ١٥٦
الاختيارات المعجمية في ديوان المعتمد بن عباد "ت٤٨٨هـ" فوَّاز أحمد صالح	١٥٧ - ١٩٢
ما جاء على بناء إِفْعَوْلَة (دراسة معجمية دلالية) تمام محمد السيد	١٩٣ - ٢٢٨
بناء الأُسلوب في شعر نافع عقراوي -قراءة في قصيدة (أَنا والليل) – حسن محمد سعيد إِسماعيل	٢٢٩ - ٢٤٤
أُسلوب الأَمر في اللغتين العربيَّة والتركيَّة (دراسة تقابليَّة) بشّار باقر عكريش	٢٤٥ - ٢٦٤
الصّفة في اللغتين العربية والإنكليزية " دراسة تقابليّة في البِنْية والتركيب والدلالة" أنفال عصام إِسماعيل الزيديّ	٢٦٥ - ٢٨٦
الجَذر (ث/ق/ل) ومشتقاته في القران الكريم -دراسة دلالية – صباح أسود محمد	٢٨٧ - ٣٠٤
بحوث التاريخ والحضارة الإسلامية	
مشركو قريش وحلفاؤهم حتى فتح مكَّة (٨ هـ) دراسة تاريخيَّة – كميَّة وليد مصطفى محمد صالح	٣٠٥ - ٣٥٦
سياسة السلطان عبد العزيز بن الحسن الاصلاحية في المغرب (١٩٠٠ – ١٩٠٥) السياسية والادارية والمالية والعسكرية عمر محمد طه عاشور و صفوان ناظم داؤد	٣٥٧ - ٣٨٤

المسيرة العلمية للدكتور محمد علي داهش محمود جاسم محمد و هشام سوادي هاشم	٣٨٥ - ٤٠٤
الإسهامات الخيرية لنساء الأسرة الحاكمة للأعمال العمرانية في الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي الى القرن السابع الهجري الثالث العشر الميلادي أرارات أحمد علي	٤٠٥ - ٤٣٦
بحوث الآثار	
ألاشيا (جزيرة قبرص) في المصادر الأكّدية فاروق عبَّاس إسماعيل	٤٣٧ – ٤٥٨
وصفات علاج لبعض أمراض الرأس في بلاد الرافدين ومصر القديمة صباح حميد يونس	٤٥٩ – ٤٨٠
بحوث علم الاجتماع وبناء السلام	
دور مؤسسات المجتمع المدني في بناء السلام والتعايش هديل نواف أحمد	٤٨١ - ٤٩٦
التحولات الاجتماعية المؤثرة في ظاهرة الانتحار دراسة تحليلية ياسر بكر غريب	٤٩٧ - ٥٢٢
بحوث الفلسفة	
الحدس أو الوعي الصوفي في فلسفة ولترستيس ندى طلال أَحمد و زيد عبَّاس كريم	٥٢٣ – ٥٦٤
بحوث الشريعة والتربية الإسلامية	
تداعيات النظر المقاصدي على أدلة الأحكام عند الْعَلَّامَةَ الزَّلَيّ أسماء عدنان محمد الفارس ونبيل محمد غريب	٥٦٥ – ٥٨٠
الإمام ابن حجر الهيتمي ومنهجه في تفسير (التوبة ويونس وهود) صفا نشوان الطائي و عمار يوسف العباسيّ	٥٨١ – ٦٠٨
بحوث القانون	
ميراث المطلقة في مرض الموت في العلاقات الخاصة الدولية دراف محمد علي حسن	٦٠٩ – ٦٤٢
بحوث علم النفس وطرائق التدريس	
فاعلية بيئة تعليمية الكترونية في تنمية مهارات تصميم الدروس الالكترونية لدى تدريسي جامعة الموصل أَحمد لؤي الصميدعي وباسمة جميل توشي	٦٤٣ – ٦٧٦

الاغتراب في شعر صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ)

أَحمد حسين محمد الساداني*

تأريخ التقديم: ٢٠٢١/٨/٦ تأريخ القبول: ٢٠٢١/٩/١٨

المستخلص:

صفي الدين الحلي من الشعراء الفرسان، شارك في معركة زوراء (العراق) ثأرًا لخاله، وأَبلى فيها بلاءً حسناً، ثم رحل إلى ماردين ومدح ملوكها، وأجاد في موضوعات الشعر جميعها، وبعد قراءة شعره وجدت معاناته الحقيقة في اغترابه وكثرة ترحاله التي وصفها في أشعاره، فقد تغير أصحابه، وخالط أناساً كثيرين، وفقد بينهم – أَحيانًا – ما كان يملكه من سلطة وجاه، وأحسّ ببعده عن موطن صباه، وتذكر عزة أهله عندما كانوا أسياد الحلة، ولاسيما بعدما تقدم به العمر أو فقد بعض حقوقه، كل ذلك جعل الاغتراب الاجتماعي والمكاني والزماني والنفسي حاضراً في قصائد، ومقطعات مستقلة، وبأُسلوب مؤثر يدل على تمكنه، مع إجادته الصنعة التي قوم بها أسلوبه فنقل لنا واقع العصر وظروفه.

الكلمات المفتاحية: ضياع، نفسي، حقوق.

تمهيد:

منذ القدم عاش الانسان ميّالاً إلى أخيه الانسان، فهو اجتماعي الطبع، يعيش مع غيره من بني جنسه، يكوّن معه علاقات تحددها القيم والمبادئ التي تسود عصره، سواءً أكانت سماوية أو من قبيل البشر، يتمتع فيها الجميع بحقوقهم في السكن والعمل والانتقال وممارسة الطقوس.

على أن هذه القيم المبادئ والحقوق لا تمنح لكل الناس؛ إذ ينال بعضهم حقوقه، ويتجاوز بعضهم الآخر على حقوق غيره، عندها يحسّ المرء بالظلم واختلال الموازين، وقد يضطر أحياناً إلى الهجرة أو إعلان التمرد أو الانسحاب والخضوع[١].

* أُستاذ/كلية النور الأهليَّة الجامعة/برطلة.

١ ينظر: الاغتراب في شعر أمجد ناصر – نسرين محمود الشرادقة – اربد– ط١ – ٢٠١٣– ٣١.

ويظهر ذلك على سلوكه وتصرفاته، فتصدر منه آهات ولوعات، أو يصور حالته وما أصابه وأصاب مجتمعه بطرائق شتى، يكون الأدب نثرًا أو شعرًا من خير الوسائل في بيان تلك الحالات. وهذا الأمر ظهر جلياً في حياة الشاعر صفي الدين الحلي، الذي عاش أحلى أيامه في مدينة الحلة، التي كانت تحت إمرة أخواله من بني المحاسن، وتعلم "ودرس فيها اللغة العربية وآدابها في شبابه ومارس الفروسية والصيد والألعاب المسلية ..."[١]

وحدث أن قُتل خاله في خلاف على رئاسة الحلة، مع آل أبي الفضل مما دعاه إلى طلب الثأر لخاله، وكان ذلك في واقعة الزوراء سنة ٧٠١هـ، وأبلى فيها بلاءً حسناً، وقال فيها قصيدته المشهورة:

سَل الرِماحَ العَوالي عَن مَعالينا وَاِستَشهِدي البيضَ هَل خابَ الرَجا فينا[٢]

لكنه دفع جراء ذلك ثمناً غاليًا، إذ غادر الحلة والعراق إلى ماردين حيث الملوك من بني أرتق، فعاش في حمايتهم، وظل من هناك يرسل الرسائل والأشعار إلى أهله ويحنّ إلى أرض الحلة، وعاش غربة حقيقية، تنقل خلالها في أرجاء العالم الإسلامي من الشام ومصر والحجاز والعراق وغيرها، لم يهدأ له بال ولم ينسَ أَرضه وما أصابه من ظلم، وظلّ يتذكرها طوال حياته، وعانى أنواعاً من الاغتراب. ولو أردنا بيان معنى الاغتراب وتوضيح معالمه؛ فهي متعددة، ففي اللغة نجد صاحب لسان العرب يقول: " الغُربُ: الذهاب والتنحي، وبالضم النزوح عن الوطن كالغربة والاغتراب والتغريب، والغروب : غيوب الشمس.."[٣] أما اصطلاحا فهو يعني " فقدان القيم والمثل الإنسانية والخضوع لواقع اجتماعي يتحكم في الإنسان ويستعبده.."[٤] على أنها توسعت لدى الآخرين فدلت " على جوانب مادية محسوسة تتمثل بالبعد الحقيقي عن الأهل والوطن بمحض

١ في أدب العصور المتأخرة – د. ناظم رشيد – الموصل– ١٩٨٥/ ٨٥.

٢ ديوان صفي الدين الحلي(ت٧٥٠ هـ) – تحقيق: محمد ابراهيم حور – الاردن– ط١– ٢٠٠٠– ٥١/١.

٣ لسان العرب – ابن منظور (ت ٧١١ هـ) – بيروت – د.ت – ٢/ ١٢٩.

٤ الاغتراب في شعر العبسيين – عنترة بن شداد – وعروة بن الورد – رسالة ماجستير – نصرت صالح يونس العكيدي – اشراف: أ.د : عمر الطالب – جامعة الموصل– كلية التربية – ٢٠٠٠– ٤.

الإرادة أو بعدمها، من خلال النفي والتغريب، وجوانب معنوية تتعلق بالأثر النفسي والروحي المتمثلة بعدم الانسجام أو التلاؤم مع الوسط أو المجتمع الذي يعيش فيه الانسان"[١] نفهم من ذلك أن المعنى الأساس للاغتراب يدور " حول فكرة البعد والاقصاء"[٢] ومن ثمَّ تعدد "معناها في البعد والنزوح عن الوطن إلى مَعانٍ ظلت في جوهرها محتفظة بفكرة هذا البعد، ولكنها تجاوزت به المكان وربطته بسياقات معرفية أُخرى غير مادية"[٣] كل ذلك يعني تغير أحوال المرء من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، مما يؤثر على سلوكه، نحاول بيان تلك الحالات التي أعلن عنها الحلي خلال سنيّ حياته:

١- **الاغتراب الاجتماعي** : سبق أن أشرنا إلى تداخل معاني الاغتراب في معظم موضوعاته من خلال استقراء آراء الدارسين[٤]، فالاغتراب الاجتماعي يرتبط كثيراً بالأوضاع السياسية والاجتماعية التي يعيشها الفرد، إذ يدل على "الشعور بالعجز وانعدام القدرة على مواجهة النظام القائم والأحداث الجارية.. "[٥] وقد عاش الحليّ –كما بينا– في مدينته وبين أهله وأصحابه في عزّ ورخاء، وعندما نزح إلى ماردين وتحول إلى غيرها من الأماكن ظهر ذلك جلياً في حياته وسلوكه، فقد عاشر أناساً لم يرَ فيهم ما كان يجده في مجتمعه الأول، ولاحظ أيضاً تغيراً من بعض أصحابه الذين تظاهروا له بالود، عندها بدأ يطرح أسئلة كثيرة مبيناً في أشعاره تغير الناس مع تغير ظروف المرء، وتلك صفة معيبة أشار إليها الشعراء قديماً، من ذلك قول الحليّ في أحد أصحابه الذي تركه ساعة الشدة: (المتقارب)

وَعَدتَ جَميلاً وَأَخلَفتَـهُ وَذَلِكَ بِالحُرِّ لا يَجمـلُ

---

١ الاغتراب في الشعر العربي – في القرن السابع الهجري – د: أحمد علي الفلاحي – الاردن – ٢٠١٣ – ١٤.

٢ الاغتراب في شعر أمجد ناصر ٢٢.

٣ م.ن ٢٢

٤ ينظر: الاغتراب في الشعر العربي ٥١.

٥ الاغتراب – ريتشارد شاخت – ترجمة كامل يوسف حسين– بيروت– ١٩٨٠– ٢١٧.

وَقُلتَ بِأَنَّكَ لي ناصـــرٌ إذا قابَلَ الجَحفَلَ الجَحفَلُ
وَكَم قَد نَصَرتُكَ في مَعرَكٍ تَحَطَّمُ فيهِ القَنا الذُبَّـلُ
وَلَستُ أَمُنُّ بِفِعلي عَلَيـكَ فَأُعجِبُ بِالقَولِ أَو أُعجِلُ[1]

يبين الحلـيّ اختلاف صاحبه الذي كان يرجو منه إخلاصاً لما وعده به، ويذّكره بصنيعه الجميل ودفاعه عنه ساعة الشدّة دون منّة؛ لأنَّ ذلك من صفات الرجل الصادق قديماً وحديثاً، لذا بدا الاغتراب واضحاً عند الحلـيّ، فقد وجد اختلافاً كبيراً في إخلاق الناس، تدل على النفاق، وهي مسألة خطيرة أشار إليها الرسول ﷺ عندما قال " آية النفاق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان"[٢] وقد أشار إلى ذلك بأُسلوب سهلٍ وواضح وبسردٍ جميل، وعلى بحر المتقارب "الذي يصلح للعنف أكثر منه في الرفق"[٣] مع "التعبير عن العاطفة الجياشة"[٤] كيف لا وهو يعاتب صاحباً قد وعده وأخلف معه الوعد، لذلك يصرح باختلاف طبائع الناس، فمنهم المخلص الصادق ومثاله الحلي، ومنهم المنافق والمخادع، ولكل واحد منزلته في المجتمع وعند الله، يقول :

بِذا يَتَفاوَتُ قَدرُ الرِجا لِ فَتَعلَمُ أَيُّهُمُ الأَكمَلُ[٥]

تكررت هذه الصور لديه مرات عدة، وبما أنه ينطلق من أخلاقه الحميدة، وصفاته الأصيلة، لذلك وجد كل أمرٍ يخالف الشرع والمجتمع غريباً، وهذا ما دفعه إلى الإحساس بالمرارة والألم والاغتراب في مجتمع مضطرب لا يأمن فيه صاحبه، ثم ينظر إلى التاريخ فيرى أمثلة عدة مما وجده على مرّ الأيام، عندها يستعين بقصيدة أحد الشعراء، الذي وصف قوماً عاش بينهم، لكنهم تخلّوا عنه وتركوه وحيداً ساعة الشدة، فيتمنى لو أَنَّه عاش

١ ديوانه ١/ ٦٨.
٢ سنن النسائي الصغرى – أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣ هـ) – اشراف ومراجعة : اصلح عبد العزيز محمد – الرياض– ط١– ١٩٩٩– ٦٨٩.
٣ فن التقطيع الشعري والقافية – د. صفا خلوصي –بغداد– ط٦ – ١٩٨٧– ١٨٥.
٤ شرح تحفة الخليل في العروض والقافية – عبد الحميد الراضي – بغداد– ١٩٦٨– ٢٩٣.
٥ ديوانه ٦٨/١.

في عصر آخر، أو بين أقوام آخرين يقول الحلي مخمساً[١] أبياتًا لقريط بن أنيف العنبري[٢]، تتشابه فيها حالته مع حالة ذلك الشاعر، يقول: (البسيط)

يا للحميةِ ضاقتْ بينكم حيلي وضاعَ حقيَ بينَ العذرِ والعذلِ
فقلتُ مع قلةِ الأنصارِ والخولِ: "لو كنتُ مِن مازِنٍ لم تَستَبِحْ إبِلي
بَنو اللَقيطَةِ مِن ذُهلِ بنِ شَيبانا"

لو أنّني برُعاةِ العُربِ مُقترِنُ، ولهمْ نَزيلٌ، ولي في حَيّهِمْ سَكَـنُ
ومسني في حمَى أبنائهمْ حزنُ، "إذنْ لقامَ بنصري معشرٌ خشـنُ
عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا"[٣]

يعلن الحلِّي صراحة عدم رضاه، وشعوره بالأسى لما وجده من أصحابه الذين تركوه، فقد أخذ بثأر خاله، ولو وجد عوناً ومؤازرة من الناس لما غادر موطنه، وتلك دلالة على ضياع حقه وعيشه مغترباً، مشيداً بتلك القصيدة التي هزته ووجد فيها صدى لجرحه النازف، فلو أنه عاش بين أناس آخرين لهم الحمية على جارهم، ويناصرون الحق، لما آل به الحال إلى هذه الغربة، متمنياً لو أنه عاش بين العرب الأَشدَّاء في البوادي وأَصابه السوء لقاموا جميعًا بنصره؛ لأنَّ العربي الأَصيل لا يقبل أن يُضام صاحبه أو جاره حتى لو قدم جراء ذلك ماله أو أولاده، لذلك " لم تقف النقمة الاجتماعية عند الشعراء عند حد فقدانهم لما هم جديرون به، أو عند حدّ إحساسهم العارم بالغبن، بل استطاع الشاعر أن يوسع دائرة الرؤيا أمام عينيه، فينظر فيما وصل إليه المجتمع من الخراب"[٤]

---

١ التخميس: أن ينظم الشاعر ثلاثة شطور على روي صدر البيت فيعود البيت مؤلفاً من خمسة شطور، بعد أن كان مؤلفاً من شطرين" "الحالي والعاطل- تتمة لملحق أمل الآمل – د. عبد الرزاق محي الدين – النجف – ١٩٧١- ١٧٠.

٢ شاعر جاهلي، في حياته غموض. ينظر: الاعلام- خير الدين الزركلي- بيروت- ط٤- ١٩٧٩- ٥/ ١٩٥.

٣ ديوانه ١/ ١٢٥، وتنظر القصيدة المخمسة في: ديوان الحماسة – لأبي تمام الطائي ٢٩.

٤ الاغتراب في الشعر الاندلسي – عصري الطوائف والمرابطين – أطروحة دكتوراه – حنان أمين – اشراف أ.د: علي دياب – جامعة دمشق- كلية الآداب – ١٩٩٧- ١٢٧.

ويفخر الحليّ بعد ذلك بقومه، مشيراً إلى أفعالهم السابقة قديماً، وهي مسألة تعارف عليها الناس، عندما يحس المرء بالخذلان، وفقدان العون وغير ذلك، يلجأ إلى القديم، يذكر تاريخه الزاهر، وفيها اغتراب اجتماعي، يتناص الحلي مع التراث وينقل حالة مشابهة لحالته فيقول:

لله قَومي الأُولى صانوا مَنازِلَهمْ عن الخطوبِ، كما أفنوا مُنازلهمُ
لا تجسرُ الأسدُ أن تغشَى مناهلهم، "قومٌ، إذا الشرّ أبدى ناجذيهِ لهمُ
طاروا إليه زَرافاتٍ ووُحدانا"[1]

هؤلاء هم قوم الشاعر صانوا الأرض ودافعوا عن الحق، وإذا أصابهم مكروه تصدوا له، لكنَّه يتأسف لما آل اليه الناس من قومه وغيرهم في ترك الأعراف التي كانوا يفتخرون بها، هم اليوم أكثر قوة وعدداً، على أنهم لا يدافعون عن الحق ومالوا إلى السكينة والهدوء، التي كانت سبباً في تراجع القوم وضياع حقوقهم. وهذا الأَمر جعله يتوجّس من كلِّ حالة مريبة، ولاسيما في غربته وابتعاده عن أهله عندما التجأ إلى ملوك بني أرتق، ويبدو أنه لم يجد الراحة والأمان في كل الأحوال، فقد وجد هناك أيضاً ما ينغّص حياته، وكما بينا فقد أعطاه الملك المنصور[2] كل ما يريد، على أنه فقد – أحيانًا– بعض حقوقه، منها قوله مخاطباً الملك الصالح ابن الملك المنصور[3] طالباً منه ردّ حقّه من لصوص سرقوا داره واحتموا بشخص قوي لا يستطيع معها ردّ ماله، يقول في مقدمة مؤثرة: (الكامل)

خَطبٌ لِسانُ الحالِ فيهِ أَبكَــمُ وَهَوىً طَريقُ الحَقِّ فيهِ مُظلِــمُ
وَقَضِيَّةٌ صَمَتَ القُضاةُ تَرَفُّعــاً عَن فَصلِها وَالخَصمُ فيها يَحكُــمُ

---

١ ديوانه ١/ ١٢٥

٢ المنصور: هو غازي بن قري أرسلان بني أرتق المارديني، صاحب ماردين، توفي عام ٧١٢هـ. (ينظر هامش الديوان ٣٤/١)

٣ الملك الصالح: هو شمس الدين ابن الملك المنصور السابق، توفي عام ٧٦٦هـ. (ينظر: هامش الديوان ٣٤/١)

أَمسى الخَبيرُ بِها يُسائِلُ مَن لَها فَأَجَبتُهُ وَحُشاشَتي تَتَضَـــرَّمُ
إِن كُنتَ ما تَدري فَتِلكَ مُصيبَةٌ أَو كُنتَ تَدري فَالمُصيبَةُ أَعظَــمُ
أَشكو فَيَعرِضُ عَن مَقالي ضاحِكاً وَالحُرُّ يوجِعُهُ الكَلامُ وَيُؤلِـــمُ
ما ذاكَ مِن فَرطِ الحياءِ وَإِنَّمــا لِهَوى القُلوبِ سَرِيرَةٌ لا تُعلَــمُ[1]

بدأ الحلي قصيدته دون مقدمات، كون الأمر جلل، موظفًا بحر الكامل بتفعيلاته المتكررة مع ملاءمته للعواطف الإنسانية ومن ثم الافصاح " بما يختلج في الصدر من شدة الألم وحرقة الحزن "[2] .

ومن خلال قافية الميم المشهورة بقوة ايقاعها[3]، وكان الابتداء بلفظ (خَطْبٌ)، دلالة على حصول أمر صعب، دون أن يتمم الجملة، كي يجلب اهتمام الملك الصالح والحضور، فالحق لا يُؤخذ إلا غلاباً، ولاسيَّما عندما يكون الخصم قوياً في حين هو مغترب لائذ بهم، وحمايته واجب عليهم، فأصبحت قضية سرقة داره أمراً شغل الناس جميعاً، حتى القضاة لم يستطيعوا فصلها، كونها تخص شخصاً لا يمكن مواجهته، لذلك صار طريق الحق صعباً، والذي يسلكه قد يتعرض لأذى، مستفيداً من عجز بيت المتنبي في مخاطبة سيف الدولة الحمداني:

يا أعدَلَ النّاسِ إلاّ في مُعامَلَتي فيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخصْمُ وَالحكَمُ[4]

فعلى الرغم من معرفة الحقيقة، نجده يخاطب – في أسىً وحرقة – الخبير أو القاضي، ولربَّما السلطان، إن كان لا يعلم الحقيقة فهي مصيبة، لأنَّ واجب الراعي (الوالي) معرفة كل شيء ومحاسبة المقصر وردّ الحقوق لأصحابها، وإن كان يعلم الحقيقة فالمصيبة أكبر، وهي دلالة على فشل إدارتها؛ لذلك لا يستطيع القاضي إعلان الحقيقة

---

١ ديوانه ١٢٨/١.

٢ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – د. عبد الله الطيب المجذوب– القاهرة– ط١– ١٩٥٥ – ٢٨٣/١.

٣ ينظر: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب – د. ماهر مهدي هلال/ بغداد –١٩٨٠– ١٣٨.

٤ شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي– بيروت – د.ت – ٦٢/٤.

ومحاسبة السارق وردّ مال الحلي، فقد عاش الشاعر اغتراباً اجتماعياً حقيقياً، إذ ترك أرضه والتجأ إلى أناس يطلب منهم الحماية، ووجد عكس ذلك، ويتابع كلامه مستخدماً السخرية؛ ليثير حفيظة السلطان، وبين له تظلم الناس في ظل حمايته، يقول:

فَاللَهُ يَحرُسُ ماردِينَ فَإِنَّهـــا بَلَدٌ يَلَذُّ بِها الغَريبُ وَيَنعَـــمُ
أَرضٌ بِها يَسطو عَلى اللَيثِ الطَلا وَيَعوثُ في غابِ الهِزَبرِ الأَرقَمُ[1]
حالَت بِها الأَشياءُ عَن عاداتِهـا فَالخيلُ تَنهَقُ وَالحَميرُ تُحَمحِـمُ
يَجني بِها الجاني فَإِن ظَفِروا بِـهِ يَوماً يُحَلَّفُ بِالطَلاقِ وَيُرحَـمُ[2]

أجاد الحلي في عرض صورة المدينة التي يعيش فيها (ماردين)، وبأُسلوب ساخر، يتجاوز فيها صغار الظباء على الليث الهصور، ويغير على الأسد الأرقم، في صورة استعارية هزلية، وتحولت الأُمور سوءاً، فالخيل أصبحت تنهق في حين الحمير أصبحت تحمحم في صورة كنائية ساخرة أخرى لأن المجرم يسرح ويمرح وإن أرادوا سجنه أو محاسبته ينجو بالقسم الكاذب أو بالحيل في شكوى صارخة مقدمة إلى السلطان، مادحاً إياه ومحرضاً على ردّ حقه قائلًا:

يا أَيُّها المَلِكُ الَّذي في عَصـرِهِ كُلُّ المُلوكِ لِعَدلِهِ تَتَعَلَّـمُ
لا تُطمِعَنَّ ذَوي الفَسادِ بِتَركِهِم فَالنَذلُ تَطغى نَفسُهُ إِذ تُكرَمُ
إِن كانَ مَن يَجني مِراراً لَم يَخَف قَطعاً فَلا أَدري عَلى ما يَندَمُ
أَيَجوزُ أَن تَخفى عَلَيكَ قَضِيَّتـي وَالناسُ في مُضَرٍ بِها تَتَكَلَّمُ[3]

يطلب من السلطان أن يكون حازماً في معاقبة المفسدين، ولاسيَّما قضيته التي انتشرت بين الناس وذاع خبرها في الآفاق وهو ساكت وكأنه لا يعلم بها، وفي هذا نقد مباشر للسلطان بأن يعالج أمور رعيته وألا يترك الناس في قلق واضطراب بما يشير إلى اغتراب ذي أبعاد اجتماعية.

---

١ الطلا: ولد الضبية، أو صغار البهائم.
٢ ديوانه ١٢٩/١.
٣ م.ن ١٢٩/١.

وهكذا يجد الحليّ حساسية تجاه أي حادث أو تغير في قوانين المجتمع يقدم لها خلاصة أفكاره، ويرفض كل شيء خارج عن الشرع والعرف الاجتماعي، منها مسألة قتل خاله غدراً، يقول راثياً: (المنسرح)

أُنظُر إلى المَجدِ كَيفَ يَنهَـدِمُ وَعُروَةِ المُلكِ كَيفَ تَنفَصِمُ
وَاِعجَب لِشُهبِ البُزاةِ كَيفَ غَدَت تَسطو عَلَيها الحِداةُ وَالرَخَمُ
قَد كُنتُ أَختارُ أَن أُغَيَّب في الـ ـتُربِ وَتَبلى عِظامِيَ الرِمَمُ
وَلا أَرى اليَومَ مِن أَكابِرِنـــا أُسداً وَفيها الذِئابُ قَد حَكَموا
ظَنّوا الوِلاياتِ أَن تَدومَ لَهُـم فَاِقتَطَعوا بِالبِلادِ وَاِقتَسَموا
وَاِقتَدَحوا بِالوَعيدِ نارَ وَغـىً وَرُبَّ نارٍ وُقودُها الكَلِـمُ[1]

قدّم الحلي صورة مفزعة لما آل إليه حاله وحال الناس في الحلة بعد مقتل خاله، فقد تغير ناموس الحياة، فالباز المعروف بشدته وصيده للحدأة وغيرها من الطيور، ترجو اليوم السلامة، بل يسطو عليها الحدأة والرّخم، كناية عن أولئك الذين تجاوزوا الحدود، فقدم صورة بصرية وحركية في تناقض الحياة، ثم استعار حالة أُخرى لا يمكن تصورها بأن حكمت الذئاب وغابت الأسود الشجعان، عندها تمنى الموت قبل أن يرى هذه الحالة الصعبة، وأصبح الأمر فوضى؛ لذلك أصبحت "الغربة الاجتماعية وجهاً مباشراً من وجوه الاغتراب السياسي؛ لأنَّها تتصل اتصالاً وثيقاً بالظروف السياسية وتقلبات الأحداث ومصائر الأشخاص الفعالين في جهاز الدولة أو في صفوف المجتمع"[2] ومما زاد الأمر سوءاً أن الحكام الجدد توهموا بأن الدنيا باقية لهم فأصبحوا يمتلكون البلاد عنوة ويهددون الناس ويصادرون الأموال.

نرى في هذه المرثية اختلافاً عن غيرها من قصائد الرثاء التي كانت تصف المرثي وتذكر أفعاله، أما هذه فقد أشار الحلي إلى الغدر والخيانة وتغيير أخلاق الناس وشيوع الظلم، مع شعوره بالأسى والاغتراب لما حلّ به وأهله ووطنه من الفرقة بعد أن كان موحداً.

---

١ م.ن ٢/٥٩١.

٢ الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي – عزيز السيد جاسم– بغداد – ط٢/ ١٩٨٧– ٩٥.

ومهدت غربة الشاعر وتنقلاته الكثيرة في البلدان له علاقات طيبة مع عدد كبير من الأشخاص البارزين منهم الملوك والوزراء والعلماء ورجال الدين، فما أن يحلّ ديار أحدهم يجد الترحاب وحسن الإقامة، ولكن هذه العلاقات ما كانت تدوم إلى آخر العمر، فما أن يخطف الموت أحدهم حتى تتغير أحواله ونظرات الآخرين تجاهه، عندها يحسّ – وهو في غربته– بالوحشة واليأس وفقدان الأمل بالعيش الرغيد والأمان، فقد أشار إلى ذلك في كثير من مرثياته، مثال ذلك قوله في رثاء السلطان محمد بن قلاوون ملك مصر سنة ٧٤٢هـ[١] : (الطويل)

وَفى لِيَ فيكَ الدَمعُ إذ خانَني الصَبـرُ وَأَنجَدَ فيكَ النَظمُ إِذ خُذِلَ النَثـرُ
وَأَضحَت تَقولُ الناسُ وَالدِستُ وَالعُلى "كَذا فَليَجَلُّ الخَطبُ وَليَفدَحِ الأَمـرُ"[٢]
"تُوُفِّيَتِ الآمالُ بَعدَ مُحَمَّـــــدٍ وَأَصبَحَ في شُغلٍ عَنِ السَفَرِ السَفرُ"
وَزالَت حَصاةُ الحِلمِ عَن مُستَقَرِّهـا وَأَصبَحَ كَالخَنساءِ في قَلبِه صَخـرُ
وَساوى قُلوبَ الناسِ في الحُزنِ رُزؤُهُ كَأَنَّ صُدورَ الناسِ في حُزنِها صَدرُ
فَإِن أَظلَمَت أَرضُ الشَآمِ لِحُزنِـــهِ فَلَم تخلُ مِن ذاكَ الصَعيدُ وَلا مِصرُ[٣]

كان الابتداء ملفتاً للانتباه بتصريع مطلع القصيدة، التي وردت على بحر الطويل لطول عبارته وتدفق موسيقاه، وتحمّله أنواعاً كثيرة من المشاعر والأحاسيس[٤]، وكثرة مفردات الطباق وتنوعها (وفى – خان، أنجد – خذل، النظم – النثر) لهذا الحدث الجلل، مستذكراً أموراً جرتْ عبر التاريخ العربي، منها تضمينه لأبيات من مرثية أبي تمام (ت ٢٣١هـ) في رثاء القائد الشجاع محمد بن حميد الطوسي (ت ٢١١هـ) الذي

١ الناصر محمد بن قلاوون، من كبار ملوك الدولة القلاوونية، له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال. (ينظر فوات الوفيات ٢٦٣/٢، الاعلام ٢٣٢/٧)

٢ عجز البيت والبيت الذي يليه تضمين من مرثية أبي تمام في القائد محمد بن حميد الطوسي. (ينظر: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي– تحقيق: محمد عبده عزام– مصر–١٩٦٥– ٧٩/٤)

٣ ديوانه ٢/ ٦٥٦.

٤ ينظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب ٣٦٨/١.

دافع عن البلاد وقدم روحه فداءً لها[١] مع إشارة واضحة إلى الخنساء ومقتل أخيها صخر وقصائدها الرائعة في رثائه[٢] ليقارن بين الحوادث المتشابهة في تناصٍ موضوعي وليدلل على عظم المصاب، ومن ثم حزن الناس عليه جميعاً في الشام ومصر وغيرها ،وأحس الشاعر بوفاته غربة اجتماعية وسياسية، كونه الحامي الذي وحّد الأمة، وهو يخشى عليها الفرقة من بعده، فكانت غربته اجتماعية من خلال فقد الصاحب والمعين.

ومعلوم لدينا أن الحلي لاقى حفاوة لدى الملوك الأرتقيين، ولكن يبدو أن الأمر لم يستقم له طوال بقائه لديهم، فقد شابت تلك الأيام بعض المنغصات، لتغير الحكام وغيرها من الظروف، وقد أكدت القيم والشرائع على احترام النزيل، وجاء الإسلام مؤكداً هذه الصفة وغيرها من الصفات على أن الحلي وجد من بعض الولاة تهاوناً وقلة اهتمام، مما جعله في قلق وحزن؛ فقد عاش في مجتمعه الأول بين أهله في عزّ وأمان، لكنه يجد الآن ما يخدش كرامته، مع خروج عن المبادئ والقيم الصحيحة، الأمر الذي دعاه إلى وصف تلك الحالة وعرضها على الوالي نفسه دون تسميته، ليعلم أنَّه لم يقم حدود الجيرة والضيافة، معاتباً إياه بقوله: (الخفيف)

خِدمَتي في الورى عَليكُم حَرامُ كَيفَ أَشقى بِكُم وَأَنتُم كِرامُ
إِنَّ شَرطَ الكِرامِ لا العَبدُ يَشقى في حِماهُم وَلا النَزيلُ يُضامُ
أَنا عَبدٌ لَدَيكُمُ وَنَزيلٌ وَلِهَذَينِ حُرمَةٌ وَذِمامُ
فَلِماذا أَضَعتُمُ حقَ مَن كا نَ لَهُ صُحبَةٌ بِكُم وَالتِزامُ
شابَ في مَدحِكُم ذَوائِبُ شِعري مِثلَ شَعري وَشِعرُ غَيري غُلامُ
وَنَظَمتُ البَديعَ فيكُم وَقَد أَل قى مَقاليدَهُ إِلَيَّ الكَلامُ
فَإِذا ما تَلا الزَمانُ قَريضَي أَصبَحَت تَستَعيدُهُ الأَيّامُ[٣]

---

١ من قواد جيش المأمون العباسي، استشهد في حربه ضد بابك الخرمي. (تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام – شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ – تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري – بيروت – ط٣ – ١٩٩٨ – حوادث وفيات ٢١١– ٢٢٠ ص ٣٦٥، الاعلام–٣٤٣/٦

٢ ينظر ديوان الخنساء– اعتنى به وشرحه – حمدو طماس – بيروت – ٢٠٠٣ : ١٧، ١٨، ٢١، ٣٤.

٣ ديوانه ١٠٧٦/٢.

صرح الحلي من دون مقدمات عن عدم رضاه عن الممدوح، وقد مدحه سابقا بخيرة قصائده، لكنه لم ينل منه ما يريد، وتلك مسألة معيبة أن يشقى النزيل وتسلب حقوقه؛ لأنه توجه إليهم طالباً الأمان والاحترام، فقد ضاع حقه، وشمت فيه الأعداء والحسّاد، وساعد التدوير الموجود في بعض أبيات القصيدة على تكثيف الموسيقى الداخلية الذي " يسبغ على البيت غنائية وليونة؛ لأنه يمده ويطيل نغماته"[١] التي دلّت على عمق التجربة الشعرية والمعاناة الحقيقية للاغتراب الاجتماعي وضياع حقوقه؛ لذلك أصبحت أشعاره لا قيمة لها مثل بياض شعر رأسه الذي أضاعه في خدمته، في حين أشعار غيره لها القيمة الكبرى ويتابع كلامه قائلا:

فَإِلى كَم أَعودُ في كُلِّ يَـوم خائِباً ساخِطاً وَتَرضى اللِئـامُ
وَإِذا جَرَّبَ المُجَرَّبَ غمـرٌ فَعَلَيهِ إِذا أُصيبَ المَـــلامُ
تَقتُلوني بِالبِشرِ مِنكُم وَقَد يَق تُلُ مَع ضَحكِ صَفحَتَيهِ الحُسامُ
وَتُريشونَ بَينَنا أَسهُمَ البَـي نِ وَتُعزى إِلَيَّ تِلكَ السِهـامُ
فَبِرُغمي فِراقُكُم وَرِضاكُـم وَشَديدٌ عَليَّ هَذا الفِطـــام
فَلَقَد صَحَّ عِندَ كُلِّ لَبيـــبٍ أَنَّ بُعدي مُرادُكُم وَالســلامُ[٢]

نلاحظ هنا الغرابة في الأمر، عندما تقدِّم خير ما لديك ويقابلك الآخر بالإساءة، يضطر الحلي عندها إلى الرحيل استجابة لرغبة صاحبه، ويودعه غير راض عنه، واصفاً تعامله بغير اللائق، عكس ما وجده عند غيره؛ لذلك كثرت المتضادات في قصيدته هذه رغبة منه في إرضاء صاحبه دون جدوى، مثل (خائباً – ترضى، فراقكم – رضاكم) وغيرها، ولعله هنا يستذكر واقعة المتنبي في مجلس سيف الدولة مما اضطره إلى مغادرته ونظم فيها قصيدته المشهورة:

واحَرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ وَمَن بِجِسمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ[٣]

١ قضايا الشعر المعاصر – د. نازك الملائكة– بيروت – ١٩٧٤– ٨٩.
٢ ديوانه ١٠٣٧/٢.
٣ شرح ديوان المتنبي – وضعه عبد الرحمن البرقوقي ٤/ ١٠٤.

فالحياة التي عاشها الحلي في غربته، وجد فيها أنواعاً من المجتمعات، فيها ما يرضيه وفيها غير ذلك، وعرض خلالها رفضه لكل حالة وجدها غير صحيحة وغير ملتزمة بالشرع والقيم والمبادئ، وتلك سمة تدل على شجاعته في مواجهة الخطأ مهما كانت الظروف فعندما عوقب بجريرة غيره، أعطانا صورة بصرية وحركية رائعة، كمن يحطم دنّ الخل عقوبة عن شارب الخمر دون محاسبته وهي كثيرة في المجتمع، يقول فيها: (الطويل)

أَتَقتَصُّ مِنّي أن جَنى الغَيرُ زَلَّةً كَكاسِرِ دَنِّ الخَلِّ إِن جَنَتِ الخَمرُ
وَمَن عَجَبِ الأَشياءِ أَنَّ جَريمَةً يَجيءُ بِها زَيدٌ فَيُجزى بِها عَمرُو[١]

وأَخيرًا يشكو الناس عامة في زمانه؛ لتغير أحوالهم وعدم وفائهم، فلا يجد فيهم خلاً وفياً حسبما يرى، وهي غير مقبولة، وتعكس واقع العصر وسوء الأحوال والتعامل مع الآخر حسب المصلحة الشخصية، وقد عبر عنها ولربما تعد خلاصة تجربته في الحياة، في عدم وفاء الأصحاب، يقول: (السريع)

لَمّا رَأَيتُ بَني الزَمانِ وَما بِهِم خِلٌّ وَفِيٌّ لِلشَدائِدِ أَصطَفي
أَيقَنتُ أَنَّ المُستَحيلَ ثَلاثَــةٌ الغولُ وَالعَنقاءُ وَالخِلُّ الوَفي[٢]

وبما أن الغول والعنقاء من الاشياء الوهمية التي لا وجود لها، كذلك يرى الحلي أن الصاحب الوفي لا وجود له في زمانه، لكثرة ما وجد من ردّ الأصحاب وعدم وفائهم في اغتراب ووحشة من مجتمعه الذي عاشه.

٢- **الاغتراب المكاني:** للمكان دور أساس في حياة الفرد وعلاقاته بالآخرين، لذلك كانت " الدلالة الأساسية لمصطلح الاغتراب أو الغربة تشير إلى المكان أو ما يسمَّى بالاغتراب المكاني"[٣]، وقد تتغير الأحداث حول الفرد وهو في أرضه، أو يضطر أحياناً إلى تركها

---

١ ديوانه ١٠٤٦/٢.

٢ م.ن ٢ / ١٠٥٣.

٣ الاغتراب الابداعي في الشعر الصوفي الأندلسي من العهد المرابطي حتى سقوط غرناطة (اطروحة دكتوراه) – بشار نديم الباججي – اشراف: أ.د : بشرى البستاني – جامعة الموصل – كلية الآداب – ٢٠٠٩- ٨.

لأسباب كثيرة، عندها تبدأ معاناته في الحنين إلى موطنه، محاولاً استرجاع الماضي مع إحياء تلك الأماني في مخيلته إن لم يستطع أن يعيشها حقيقة، إذ يكون المكان "حائلاً أكيداً دون تلقائية الإنسان، ويغدو المكان حداً من حدود القهر الكبرى"[١] لذلك عاش الحلي اغتراباً مكانياً حقيقياً عندما غادر الحلة، يقول: " ثم جرت بالعراق حروب ومحن وطالت خطوب وإحن، أوجبت بعدي عن عريني، وهجر أهلي وقريني"[٢] فتركها حرصاً على حياته، متوجهاً إلى ماردين وغيرها من الأماكن، ولم يستقر به المكان، فهو تارة يرحل إلى الشام أو إلى مصر أو الحجاز وغيرها من الأماكن والمدن، علّه يجد ما افتقده في مدينته، لكنها لم تُنسه أرضه، وظل يتذكرها في كثير من أشعاره، يحن إليها ويراسل أهلها منها قوله في إحدى قصائده التي أرسلها إلى عشيرته وهو مغترب: (مشطور الرمل)

بَلِّغي الأَحبابَ يـا ري حَ الصَبا عَنّي السَلامـا
وَإذا خاطَبَكِ الجـــا هِلُ بي قَولي سَلامـــا
أَنا مَن لَم يَذمُمِ النـــا سُ لَهُ يَوماً ذِمامـــا
يَحفَظُ العَهدَ وَلا يـَس مَعُ في الخِلِّ مَلامـــا
مِن أُناسٍ صَبَروا الـعِر ضَ عَلى الذَمَّ حَرامـا
أَيتَموا الأَطفالَ في الحَر بِ وَهُم كَهفُ اليَتامـا
وَإذا مَرّوا بِلَغـــوٍ في الوَرى مَرّوا كِراما
فَلَكَم ذُقتُ عَذابـــاً في الهَوى كانَ غَراما
إنَّ نارَ الشَوقِ ســـا عَت مُستَقَرّاً وَمَقامـا[3]

استعمل الحلّي مشطور الرمل في عرض محنته واغترابه، ومعلوم أنَّ الرَّمَل يجود في الحزن والفرح[٤] مع قافية الميم المردفة بألف الإطلاق التي تعطي نغمة حزينة وكأنها صرخة ملهوف، يضاف إلى ذلك ورود التدوير في معظم أبيات القصيدة دلالة على شدة

١ سيكولوجيا القهر والإبداع – ماجد موسى ابراهيم– القاهرة –ط٣ – ١٩٨٨– ٦٣.
٢ ديوانه ٣٣.
٣ ديوانه ١٠٠.
٤ ينظر: فن التقطيع الشعري والقافية ١٣٣.

معاناته، التي تساعد على تكثيف الموسيقى الداخلية للقصيدة، فهو يستعين كغيره من الشعراء بريح الصّبا ليصل سلامه إلى مدينته وأهله الذين لا يمكن الوصول إليهم، مستفيداً من القرآن الكريم وألفاظه ومعانيه في ترك خطاب الجاهلين، وعدم الالتفات إليهم في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً﴾[1] مميزاً بين أهله الصالحين وغيرهم الذين أساؤوا إليه وإلى مدينته، وقتلوا الناس ظلما وعدواناً ويتموا الأطفال في إشارة إلى مقتل خاله غدراً وفي إشارة ثانية إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[2] فهو يحن إليهم ويعاني بسبب بعده عن مدينته التي أصبحت بيد الأعداء الذين لا يحسنون التعامل مع الناس، ولا يحسنون الصفح والعفو، بل شيمهم الغدر والإساءة، في اغتراب مكاني وشكوى عارمة في نفسه، مع رغبة جامحة للعودة إلى موطنه ومرتع صباه.

وقصائده التي حنّ فيها إلى دياره كثيرة، يتذكر فيها أيامه ومناطق المدينة الجميلة؛ فهو مهما يجد في ديار الغربة من العطاء والتكريم لكنه لا ينسى أرضه، مثال ذلك قوله مادحاً السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر: (الرجز)

كَم قَد أَفَضنا مِن دُموعٍ وَدَماً عَلى رُسومِ لِلدِيارِ وَدِمَنَ
وَكَم قَضَينا لِلبُكاءِ مَنسِكاً لَمّا تَذَكَّرنا بِهِنَّ مَن سَكَنَ
مَعاهِداً تُحدِثُ لِلصَبرِ فَناً إِن ناحَتِ الوُرقُ بِها عَلى فَنَن
تَذكارُها أَحدَثَ في الحَلقِ شَجاً وَفي الحَشا قَرحاً وَفي القَلبِ شَجَن
لِلَّهِ أَيّامٌ لَنا عَلى مِنىً فَكَم لَها عِندي أَيادٍ وَمِنَن
كَم كانَ فيها مِن فَتاةٍ وَفَتىً كُلٌّ لِقَلبِ المُستَهامِ قَد فَتَنَ
شَرِبتُ فيها لَذَّةَ العَيشِ حَساً وَما رَأَيتُ بَعدَها مَرأً حَسَنَ[3]

يصور الحلي حنينه إلى أرضه، ويذرف عليها الدموع الغوالي؛ لفراق تلك الأماكن، ويتذكرها ما ناحت الحمائم؛ فتحدث وجدانه غصة وبكاء شديداً، وفي الحشا ألماً وجرحاً

١ الفرقان، الآية ٦٣
٢ م.ن، الآية ٧٢.
٣ ديوانه ١٨٦/١.

وفي القلب حزناً عميقاً، في إشارة واضحة إلى معاناته وبعده عن دياره التي قضى فيها أجمل أيامه، وبعد تركها لم يجد لذة في العيش، ليجلب انتباه السلطان، ويكشف عن معاناته بعد هذه الرحلة الطويلة التي قطعها إليه، ووظف الجناس بين صدر البيت وعجزه جامعاً بين التنوين في الصدر والنون في العجز وكأنه يردّ العجز على الصدر في كل مرة؛ ليدلل على قدرته على النظم ليحدث ذلك الجرس القوي مع قافية النون الشائعة في الشعر العربي[١]؛ فظهرت الصنعة واضحة لأن الحلّي ألقاها أمام أحد الممدوحين العارفين بالشعر، ولاسيَّما أَنَّ الصنعة كانت سمة بارزة في ذلك العصر.

وفي قصيدة أخرى يمدح بها الملك المنصور غازي بن أرتق، ويشير إلى أرض الممدوح ودياره الطيبة لكنه يسترجع فيشتاق إلى أرض العراق وفاءً لها، يقول: (البسيط)

إن لَم أَزُر رَبعَكُم سَعياً عَلى الحَدَقِ فَإِنَّ وُدِّيَ مَنسوبٌ إلى المَــلَقِ
تَبَّت يَدي إِن ثَنَتني عَن زِيارَتِكُم بيضُ الصِفاحِ وَلَو سُدَّت بِها طُرُقي

ثم يقول:

هَبَّ النَسيمُ عِراقِيّاً فَشَوَّقَنــي وَطالَما هَبّ نَجدِيّاً فَلَم يَشُــقِ
فَما تَنَفَّستُ وَالأَرواحُ سارِيَــةٌ إِلّا اِشتَكَت نَسَماتُ الريحِ مِن حُرَقي
ذَر أَيُّها الصَبُّ تَذكارَ الدِيـارِ إِذا مُتَّعتَ فيها بِعَيشٍ غَيرِ مُتَّسِــقِ
فَكَم ضَمَمتَ وِشاحاً في الظَلامِ بِها ما زادَ قَلبَكَ إِلّا كَثرَةَ القَلَــقِ[٢]

يصرّح الحلّي، وهو يمدح صاحب ماردين الذي أكرمه بشوقه إلى أرض العراق عندما تهب النسائم من أرضه، وعندما تهب من غيرها فلا يشوقه ذلك، وعندما يتنسم رياح بلاده تشتكي الرياح من شدة لوعته وحرقة أحشائه، ويحاول أن ينسى الذكريات المؤلمة التي فارق بسببها أرضه، وعانى لأجلها أياماً عصيبة في قلق دائم، وعاش اغتراباً صعباً لما آل إليه حال بلده بعد مقتل خاله.

١ ينظر: فن التقطيع الشعري والقافية ٢١٥.
٢ ديوانه ١/ ١٨٩.

عدا تلك الأَحوال، فله أيام أخرى جميلة، قضاها في مدينة الحلة، قبل رحيله عنها، يحنّ اليها ويصف مناطقها قائلا: (البسيط)

مَن لَم تَرَ الحِلَّةَ الفَيحاءَ مُقلَتُــهُ فَإِنَّهُ في اِنقِضاءِ العُمرِ مَغبـونُ
أَرضٌ بِها سائِرُ الأَهواء قَد جُمِعَت كَما تَجَمَّعَ فيها الضَبُّ وَالنـونُ
فَالغُدرُ طافِحَةٌ وَالريحُ نافِحَــةٌ وَالوُرقُ صادِحَةٌ وَالطَلُّ مَوضونُ[١]
ما شانَها غِيرُ بَغيِ الجاهِلينَ بِها كَأَنَّها جَنَّةٌ فيها شَياطيــنُ[٢]

يشتاق الحلّي إلى مدينته، مصوراً من لم يرها متمتعاً بطيبها بأنه مغبون، لما فيها من عناصر المحبة والخير والفرح، ووسائل الراحة من الطيور والأسماك والمياه الجارية والنسيم العليل، وأسهم حسن التقسيم في البيت الثالث في رسم صورة مميزة لمدينته، وأضاف إلى القصيدة جرساً موسيقياً جديداً تناغمت مع الموسيقى الخارجية المتمثلة بحرف النون الانفجاري لبيان معاناة الشاعر لما افتقده جراء اغترابه وبعده عن مدينته التي تركها مضطراً – كما أسلفنا– وسيطر عليها أناس آخرون، شبههم بالشياطين، وهو وصف غريبٌ جداً، فمدينته كانت كالجنة، والجنة لا يسكنها إلَّا الاتقياء، ولما حصل فيها من الغدر فقد حلّ فيها أُناس كالشياطين لتجاوزهم على القيم والحدود.

وله قصائد طافحة بالحنين أرسلها إلى أَهله وأَصحابه في الحلة الفيحاء، التي يتمنى زيارتها، ويتذكر أيامها، باغتراب مكاني تملك وجدانه؛ فهو لا يستطيع زيارتها، منها قصيدته التي أرسلها من ماردين إلى الشيخ العالم مهذب الدين محمد بن يحيى النحوي الحلّي[٣] بدأها بقوله: (الطويل)

أَخِلّايَ بِالفَيحاءِ إِن طالَ بُعدُكُـم فَأَنتُم إلى قَلبي كَسِحرِيَ مِن نَحـري[٤]
وَإِن يَخلُ مِن تِكرارِ ذِكري حَديثُكُمُ فَلَم يَخلُ يَوماً مِن مَديحِكُم شِعــري

---

١ موضون: مُنضّد.
٢ ديوانه ٤٦٣/١.
٣ لم أعثر على ترجمته.
٤السحر: الرئة.

فَوَ اللَهِ لا يَشفي نَزيفَ هَواكُـــمُ سِوى خَمرِ أُنسٍ كانَ مِنكُم بِها سُكري[١]

يخاطب الحلّي صاحبه بلسان الجمع، فمهما طال بعده عن أحبابه وأرضه، لكنهم قريبون إلى قلبه ونفسه كل ساعة ووقت، هذا التذكر والشوق لا يشفى إلا بلقياهم، فالمرء عندما يلتقي بأحبابه، يجد لذة كبيرة، شبهها الحلّي بلذة شارب الخمرة، الذي ينسى همومه، مشبهاً صورة حسية بأخرى معنوية، ويستمر فيقول:

أُطالِبُ نَفسِيَ بِالتَصَبُّرِ عَنكُـــمُ وَأَوَّلُ ما أُفقِدتُ بَعدَكُم صَبــري
فَإِن كانَ عَصرُ الأُنسِ مِنكُم قَدِ اِنقَضى فَوَ العَصرِ إِنّي بَعدَ ذَاكَ لفي خُسرِ
بَكَيتُ لِفَقدِ الأَربَعِ الخُضرِ مِنكُـــم عَلى الرَملَةِ الفَيحاءِ بِالأَدمع الحُمرِ
فَكَيفَ بَقِيَ إِنسانُ عَيني وَقَد أتـــى عَلى ذَلِكَ الإِنسانُ حينٌ مِنَ الدَهرِ[٢]

فهو يصبر على فراق أهله، لكن طول الفراق جعله يفقد صبره، ويعيش في قلق متواصل واغتراب دائم؛ وفقد لذلك الأنس في العيش واللذة في الحياة، مستعيناً بآيات من القرآن الكريم في قوله تعالى: "والعصر إن الإنسان لفي خسر"[٣] دلالة على فقدانه الأهل والأرض، ممَّا دعاه إلى البكاء والتحسر، مقدماً صوراً رائعة لحزنه وابتعاده عن مرابع أهله، منها أرض الرمّلة المشهور في مدينة الحلة في صورة بصرية في الشطر الأول من البيت الثالث، وصورة مفزعة في عجز البيت، وهو يستغرب كيف بقي إنسان عينه (بؤبؤه) سليماً لكثرة بكائه، ويتابع كلامه عن مدينته قائلًا:

سَقى رَوضَةَ السَعدِيِّ مِن أَرضِ بابِلٍ سَحابٌ ضَحوكُ البَرقِ مُنتَحِبُ القَطرِ
وَحَيّا الحَيا مَغنىً قَضَيتُ بِرَبعِـــهِ فُروضَ الصِبا ما بَينَ رَملَةَ وَالجِسرِ
وَرُبَّ نَسيمٍ مَرَّ لي مِن دِيارِكُـــم فَفاحَ لَنا مِن طَيِّه طَيِّبُ النَشـــرِ[٤]

---

١ ديوانه ٤٧٣/١.

٢ م. ن ١/ ٤٧٤. وفي البيت الأخير إفادة من قوله تعالى " هل أتى على الإنسان حين من الدهر" (الانسان، الآية ١)

٣ العصر: الآيتان ١-٢.

٤ ديوانه ٤٧٤/١.

يتمنى الخير لتلك الأماكن التي عاش فيها، منها روضة السعدي وأرض الرملة والجسر، متمنياً نزول الغيث عليها، لتبقى خضراء مزهرة على عادة غيره من الشعراء، وأخيراً يعلم أن أمانيه صعبة التحقيق واغترابه عن أرضه واقع ولا يستطيع العودة إلى دياره؛ فأصبحت وسيلته الوحيدة تلك الريح الطيبة التي تأتي من ديارهم فتذكره بأيامه السعيدة التي قضاها هناك مختتماً قصيدته ببيت رائع، يدلّ على رغبته في العودة، لكنه يأبى خوفاً من غدر العدو فيقول:

تُجاذِبُني الأَشواقُ نَحوَ دِيارِكُم فَأَحذَرُ مِن كَيدِ العَدُوِّ الَّذي تدري[1]

بهذا عبر الحلّي عن اغترابه وصدق مشاعره إلى أرضه وأهله، علماً أنه عاش في (ماردين) وغيرها من المدن التي لا تقل أنساً وجمالاً عن الحلة؛ لذلك كان كثير الترحال علّه يجد بديلاً عن مدينته، لكنه على الرغم من الحفاوة التي كان يجدها – في الغالب – أينما حلّ، لم ينس، ولم يجد أفضل من مدينته، فهو في إحدى زياراته إلى بلاد الشام، يستمتع بطيبها ثم يتذكر أرض أجداده، عندها يرسل رسالة إلى ابن عمٍ له قائلاً: (الخفيف)

أَتُرى البارِقَ الَّذي لاحَ ليلا مَرَّ بِالحَيِّ مِن مَرابِعِ لَيلى
وَتَرى السُحبَ مُذ نَشَأنَ ثِقالاً سَحَبَت في رُبوعِ بابِلَ ذَيلا[2]

نجد ظاهرة بارزة في أشعاره هذه، وهي كثرة السؤال؛ لأنَّه مغترب عن أهله وموطنه، فهو في قلق دائم يسأل عن الأماكن والأهل ويشتاق إليهم، مستفسراً عن البرق الذي ظهر، هل مرّ بديار ليلى، مصرعاً مقدمة القصيدة ليجلب الانتباه إلى ما هو عليه، ومعلوم أن ليلى اسم مستعار أطلقه الشعراء على بعض محبوباتهم، أو بعض المحبوبات المفترضات، ويتساءل عن نزول المطر في تلك الديار لتكون مخضرة مفعمة بالحياة، يقول:

ما أَضا البارِقُ الغربي إِلّا أَرسَلَت مُقلَتي مِنَ الدَمعِ سَيلا
وَتَذَكَّرتُ جيرَةً بِمَغانـي هِ وَنَدباً مِن آلِ سَنبَسَ قَيلا[1]

---

١ م.ن ١/٤٧٤.
٢ م.ن ١/٤٨٣.

عندما ترعد السماء صوب دياره، يرسل مع المطر النازل دموعاً غزار، شوقاً إليها؛ فيتذكر جيرة، وأياماً حزينة لما أصاب أهله من آل سنبس الأبطال الذين قتُلوا غدراً، يقول أيضاً:

عَمَّنا بِالوَدادِ في حالَةِ القُـر بِ وَأَهدى لَنا عَلى البُعدِ نيلا
وَحَمَلَنا بِضاعَةَ الشكرِ مُزجا ةً فَأَوفى لَنا مِنَ الوُدِّ كَيـلا
كَيفَ أَنسى تِلكَ الدِيارَ وَمَغنىً عامِراً قَد رَبيتُ فيهِ طُفيـلا[٢]

أَحسَّ الحلّي بالمودّة والعطاء حال عيشه في مدينته، وحال بعده عنها بالأماني الطيبة والوفاء بينه وبين أصحابه ولاسيما أنه تربى فيها منذ صغره، وفي البيت الثاني أفاد الحلّي من القرآن الكريم لبيان مدى شوقه وحبه لأهله، مستفيداً من الحوار الذي دار بين يوسف وإخوته في قوله تعالى: " فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ"[٣] ففي قوله " وحَمَلنا" دلالة على الودّ والمحبة الصادقة المتواصلة بينه وبين أهله، مع الرقي والسموّ الاجتماعي[٤] ويستمر الحلّي في عرض معاناته واغترابه الاجتماعي وبعده عن دياره قائلاً:

أَتَمَنّى العِراقَ في أَرضِ حَرّا نَ وَهَل تُدرِكُ الثُرَيّا سُهيـلا[٥]
يا دِيارَ الأَحبابِ ما كانَ أَهنى بِمَغانيكَ عيشَنا وَأُحَيلـى
كَم جَلَونا بِأُفقِكِ البَدرَ صُبحاً وَاِجتَلَينا بِجُوِّكِ الشَمسَ لَيلا[٦]

---

١ م.ن: ٤٨٣/١.

٢ م.ن ٤٨٣/١.

٣ سورة يوسف، الآية ٨٨.

٤ ينظر: التناص في شعر صفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠ هـ) – اطروحة دكتوراه – مقداد خليل الخاتوني – اشراف أ.م.د: يونس طركي سلوم – جامعة الموصل– كلية الآداب– ٢١٢– ٨٣.

٥ الثريا: هي ستة أنجم ظاهرة، خلالها نجوم كثيرة خفيفة، (كتاب الأنواء في مواسم العرب – ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) – الهند –١٩٧٨ – ٢٣)
سهيل: كوكب أحمر يمان. (كتاب الأنواء ٥٢).

٦ ديوانه ٤٨٣/١.

يكرر الحلّي حبه للعراق جميعاً، مشبهاً أرضه بنجمة سهيل المضيئة، وغيرها من الأَراضي بنجوم الثريا البعيدة وقليلة الضوء، لذا يتذكر أيامه ولياليه دون أن يكلّ أو يملّ منها، فهو يفضلها على غيرها من الأماكن:

وَأَمِنّا الأَعداءَ لَمّا جَعَلنـا سورَ تِلكَ الدِيارِ رَجلاً وَخَيلا
أَنتَدي في حِماكِ كَعباً وَمعنى وَإِذا شِئتُ سَنبَساً وَعُقَيـلا[1]

بعد أن يذكر أرضه يفتخر بقومه في دفاعهم عن الديار بجيوشهم وخيولهم عندما يجتمعون جميعاً، وفيهم من بني كعب ومعن وسنبس وعقيل، في ظاهرة مميزة، ذلك أنه لا يفتخر بأهله من بني سنبس وحدهم بل جعل أمر الدفاع عن البلد مناطاً بكل قبائل العرب في شعور قومي ووطني رائع، وبما أنه لا يستطيع زيارة الحلة، نراه يرسل سلامه مع غيره من الزائرين، يقول:

إن وَرَدتَ الفيحاءَ يا سائِقَ العي سِ وَشارَفتَ دَوحَها وَالنَخيلا
وَرَأَيتَ البُدورَ في مَشهَدِ الشَـم سِ تفيأنّ بانَه وَالأَثيـلا
مِل إِلَيها وَاحبِس قَليلاً عَلَيهـا إِنَّ لي في ذَلِكَ الحَيِّ ميـلا
وَأَبلِغِ الرَملَةَ الأَنيقَةَ وَأَبلِـغ مَعشَراً لي بِرَبعِها وَأُهيـلا[2]

يخاطب الزائرين بأن يمروا على تلك الأماكن بأشجارها وأرضها الخضراء؛ فطالما قضى فيها أياما لا تنسى، لذلك نراه يكرر تلك الأسماء في كثير من أشعاره، وهي تدل على شعوره الطيب تجاه تلك الأماكن واغترابه الحقيقي، فهو وإن لم يتمكن من زياتها لم يبخل بها، بل يتمنى لغيره زيارتها والتمتع بها حاساً بغربته وبعده عنها، ويقول أخيرا:

كُنتُ جَلداً فَلَم يَدَع بَينُكُم لِل جِسمِ حَولاً وَلا لِقَلبِيَ حَيلا
قَد ذَمَمنا بُعَيدَ بُعدِكُمُ العَي شَ فَلَيتَ الحِمامَ كانَ قُبَيلا[3]

فقد كان قوياً صلباً قبل مغادرة مدينته الحلة، معززاً بأهله وأصحابه، وبعد فراقها تغيرت به الحال فهزل جسمه ووهن قلبه، وصعب عليه العيش من دونهم متمنياً الموت قبل مغادرتها

١ ديوانه: ٤٨٤/١، انتدى القوم: اجتمعوا في النادي.
٢ م. ن: ٤٨٤/١.
٣ م.ن ١/ ٤٨٤.

في اغتراب مكاني، وله قصائد ومقطعات في وصف مدينته الحلة ولم يتطرق إلى غيرها دلالة على شدة تعلقه بها.[١]

٣- **الاغتراب الزماني:** يمرُّ الإنسان بمراحل عديدة وتجارب كثيرة، فإذا تغيرت حالته من اليسر إلى العسر أو تقدمت به الأيام والسنون وأحس بفقدان ما امتلكه من قوةٍ وجاهٍ ومنصبٍ وشبابٍ ومالٍ وغير ذلك، ظهرت معالم هذا التغيير على سلوكه، وعبّر عنها بطرائقٍ شتى، مبيناً عدم رضاه من تغير الأيام وظلم الزمان والناس، أي أن الاغتراب الزماني يحدث "من خلال فقدان التوازن النفسي، والانسجام الذاتي مع اللحظة التي يحياها الفرد، وظهور حالة من التوتر بفعل تلك التبدلات النفسية، وربما تغير المعالم المادية للمكان؛ لأَنَّ الزمن يمثل قوة فاعلة تشمل الانسان والمكان معاً "[٢] هذا ما وجدناه في أشعار الحلّي، يذكر أيامه التي عاشها مقدراً، بكامل صحته وشبابه، وبين أهله، ثم يذكر حالته التي تغيرت بعد مغادرة الحلة وفراق أهله وأصحابه مع تقدمه في العمر واصفا تلك الأحوال بصور تدل على شكواه واغترابه، وكثيراً ما ترد تلك الأشعار لديه ضمن غيرها من الموضوعات كالاغتراب الاجتماعي أو المكاني أو النفسي، منها قوله واصفاً شكواه من الأيام ضمن قصيدة طويلة في مدح الرسول ﷺ : (الطويل)

وَيُسعِدُني شَرخُ الشَبيبَةِ وَالغِنى إِذا شانَها إِقتارُها وَقَتيرُهـــا[٣]
وَمُذ قَلَبَ الدَهرُ المِجَنَّ أَصابَني صَبوراً عَلى حالٍ قَليلٍ صَبورُها[٤]
فَلو تَحمِلُ الأَيّامُ ما أَنا حامِـلٌ لَما كادَ يَمحو صِبغَةَ اللَيلِ نورُها
سَأَصبِرُ إِمّا أَن تَدورَ صُروفُها عَلَيَّ وَإِمّا تَستَقيمُ أُمورُهـــا
فَإِن تَكُنِ الخَنساءُ إِنِّيَ صَخرُها وَإِن تَكُنِ الزَبّاءُ إِنّي قَصيرُهـا[٥]

---

١ ينظر: ديوانه ١/ ٤٨٥، ٤٨٦، ٢/ ٥٢٨، ٥٥٦، ٣/ ١٥٣٢.

٢ الاغتراب في الشعر العربي ٧٥.

٣ الاقتار: الفقر، القتير: الشيب.

٤ صدر البيت إفادة من المثل " قلب له ظهر المجن" (ينظر: مجمع الأمثال/ أبو الفضل أحمد ابن محمد الميداني (ت ٥١٨هـ) –ت: محمد محيي الدين عبد الحميد– بيروت – ط٣– ١٩٧٢– ٢/٦٤).

٥ ديوانه: ١/ ١٣٩.

فعلى الرغم من أن قصائد المديح النبوي نظمت في مديح الرسول ﷺ والزهد والتقوى، لكن بعض الشعراء عرضوا خلالها معاناتهم ومعاناة أمتهم، ولاسيما بعد سيطرة العناصر الدخيلة على مقاليد الامور[١] وعليه وجدنا الحلي يعرض شكواه بعدما عاش دهراً في سعادة وغنى أيام شبابه، فهو الآن في فقره وشيبه يتحسر على تلك الأَيَّام التي لا زالت باقية في مخيلته في اغتراب زماني، وقد تبدل أصحابه وشمت فيه الأَعداء، لكنَّه لم يستسلم، فالأبيات تصور" ثقة عالية بالنفس وإحساساً بكبرياء كامنٍ فيها، مفيداً بالتناص من تراكيب قول العرب ومضمونه بالمثل: (قلب له ظهر المجن)؛ لذا فقد استعان الشاعر بالمثل في تصوير الحال ليؤكد صبره في تجاوز صعاب الأمور وتغير الأحوال رافضاً مواقف الذل والهوان بشموخ وعزة "[٢] فقد أكد الحلي شدة الظروف وقسوتها التي مرت به، لو أنها مرت على الأيام لبقيت في ظلام دامس لا يمحوه ضوء النهار، مستأنسًا بأَيام صعبة مرت عبر التاريخ، وتحمل أصحابها أعباءها، منها الخنساء في تحمل مقتل أخيها صخر وظلت تذكره في أشعارها[٣] والزباء ملكة تدمر وتحملها لمكر وخديعة صاحبها قيصر[٤] وهي أدلة كافية على اغتراب الشاعر الزماني ومعاناته.

وفي قصيدة أخرى أرسلها إلى الملك الصالح بن الملك المنصور من بغداد بعد أن غادر ماردين، ويبدو أنه لم يجد في بغداد ما يتمناه بعد غيبته الطويلة، يمدح الملك المنصور أولاً ويصف أيام شبابه التي قضاها عنده، وبعد عودته إلى بغداد وكبر سنه لم يهنأ بها، يقول الفيروز أبادي الذي رآه في بغداد "اجتمعت سنة ٧٤٧هـ، بالأديب الشاعر صفي الدين بمدينة بغداد فرأيته شيخاً كبيراً وله قدرة كافية على النظم والنثر .... ولكنه كان في حالة رثة"[٥] بدأ قصيدته بقوله: (الطويل)

---

١ ينظر: الأدب العربي في العصر الوسيط – د. ناظم رشيد/ الموصل – ١٩٩٢– ٨٣.

٢ التناص في شعر صفي الدين الحلي ١٢٩.

٣ ينظر ديوان الخنساء ١٣، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٥...

٤ الزباء: ملكة تدمر وقصتها مع قصير بن سعد معروفة، الذي خدعها للثأر بمقتل جذيمة الأبرش، لكنها شربت السم أخيراً حتى لا تقع في يد قصير. (ينظر: الاعلام ٤٥/٦.

٥ شعراء الحلة أو البابليات – على الخاقاني– بغداد– ط٣– ١٩٧٥– ٣/ ٢٩٩.

ما هَبَّتِ الريحُ إلّا هَزَّني الطَـرَبُ إذ كانَ لِلقَلبِ في مَرِّ الصَبا أَرَبُ
لِذاكَ إن هَيمَنَت في الدَوحِ أُنشِـدُهُ بَيني وَبينَكَ يا دَوحَ الحِمى نَسَبُ
يا جيرَةَ الشِعبِ لَولا فَرطُ بُعدِكُـمُ لَما غَدا القَلبُ بِالأَحزانِ يَنشعِـبُ
فَهَل يَجودُ بِكُم عَدلُ الزَمانِ لَنـا يَوماً وَتُرفَعُ فيما بَينَنا الحُجُـبُ
يا سادَةً ما أَلِفنا بَعدَهُم سَكَنـاً وَلا اِتَّخَذنا بَديلاً حينَ نَغتَـرِبُ
بِوُدِّكُم صارَ مَوصولاً بِكُم نَسَبـي إِنَّ المَوَدَّةَ في أَهلِ النُهى نَسَبُ
جَميلُكُم كانَ في رِقّي لَكُم نسَبـاً لا يوجَدُ الحُكمُ حَتّى يَوجَدَ السَبَبُ
فَكَيفَ أَنساكُمُ بَعدَ المَشيبِ وَقَـد صاحَبتُكُم وَجَلابيبُ الصِبا قُشُبُ
أَم كَيفَ أَصبِرُ مُغتَرّاً بِأُمنِيَـةٍ وَالدارُ تَبعُدُ وَالآجالُ تَقتَـرِبُ
كم زُرتُكُم وَعُيونُ الخَطبِ تَلحَظُني شَزراً وَتَعثُرُ في آثارِيَ النُـوَبُ[1]

أبدع الحلي في إعلان مشاعره بعد مغادرة الملك الصالح، وقد كبر وتغيرت أحواله، لذا تذكر الأيام التي قضاها هناك، متمنياً عودتها ولكن هيهات، فقد ودّع الصّبا، وكان الابتداء بمطلع القصيدة مناسباً لوضعه النفسي والحالة التي يعانيها، ولاسيما بتوظيفه لبحر الطويل الذي يلائم موضوعات المديح لطول نفسه ورحابة صدره[2] ودلت على تماسك الأبيات ووحدتها كثرة ردّ العجز على الصدر منها (الشعب – ينشعب، نسبي– نسب) مع توظيف الطباق بصورتين متناقضتين لحياة الشاعر أيام الشباب وأيام المشيب التي عمقت اغترابه الزماني منها: (المشيب – الصّبا، تبعد – تقترب) وأخيراً يصرح بنفاد صبره، فهو ليس كما كان في أحواله سابقاً التي كان يصرّ فيها على الصبر وتحمل الشدائد؛ لأنه متعلق بأمنية صعبة، منها الكبر والبعد عن الممدوح، واقتراب أجله، وهذا النوع من الاغتراب الزماني والنفسي يمر به الإنسان عندما يتأسف على أماني مرت دون تحقيقها.

وعلى هذه الحال ما أنْ يحل أرضاً أو يغادر أُخرى، حتى يحسّ بغربته؛ لأنَّ الهم الأكبر لم يحل وهو بعده عن أرضه ومن ثم تقادم الزمن، فيستذكر الأيام التي قضاها

---

١ ديوانه: ٣٢٢/١.

٢ ينظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – د. عبد الله الطيب ١/ ٣٦٢.

في صباه في الحلة أو في ماردين وغيرها من الأماكن، ففي إحدى نزهاته في ماردين، يصف الصيد والطرد والحياة الهانئة، يستذكر أيامه في بابل (الحلة) فيصف صيد الكراكي أولا ثم يسترجع فيقول: (الرجز)

أَهلاً بِها قَوادِماً رَواحِلا تَطوي الفَلا وَتَقطَعُ المَراحِلا

ثم يقول:

لِلَّهِ أَيّامُ لنا بِهورِ بابِـــلِ أَضحى بِها الدَهرُ عَلينا باخِلا
فَكَم قَضَينا فيهِ شَملاً جامِعـاً وَكَم صَحِبنا فيهِ جَمعاً شامِلا
فَهَل تُرى تَرجِعُ أَيّامي بِـــهِ في جَذَلٍ قَد كانَ فيهِ حاصِلا
هَيهاتَ مَهما يَستَعِر مُستَرجِعٌ أَراجِعٌ لي الدَهرُ حَولاً كامِلا[1]

على الرغم من اللهو والفرح الذي عاشه وقت نظم القصيدة، لكنه يحسّ بنقص في حياته وهو بعده عن أرضه وزمانه القديم، في بابل التي أصبحت بخيلة عليه، وقد قضى فيها مع صحبه أياماً هانئة ويتساءل كعادته، هل تعود تلك الأيام ويلتقي بأهله وأصحابه، ويعلم يقيناً أنها لا تعود فقد ذهب الأصحاب وتغيرت الأيام، لذلك عبر عنها بـ (هيهات) وهو اسم فعل ماضٍ للبعيد الذي لا يمكن تحقيقه، في استفهامٍ إنكاري؛ لأنَّ الدهر لا يعود، وهي مسألة مهمة يعلمها الجميع. وله رسالة إخوانية أرسلها إلى الشاعر جمال الدين بن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ)[2] حالت الأيام دون لقائهما، يقول: (الخفيف)

مَن لِصَبٍّ أَدنى البُعادُ وَفاتَـــهُ إِذ عَداهُ وَصلُ الحَبيبِ وَفاتَـه[3]
فاتَهُ مِن لِقا الأَحِبَّةِ عَيـــشٌ كانَ يَخشى قَبلَ الوَفاةِ فَواتَـه
كانَ ثَبتاً قَبلَ التَفَرُّقِ لَكِـــن زَعزَعَت رَوعَةُ الفِراقِ ثَباتَـه
سَرَّهُ جَمعُ شَملِهِم بِلِقاهُـــمُ فَقَضى حادِثُ الزَمانِ شَتاتَـه

١ ديوانه: ١/ ٤٢٢.

٢ جمال الدين: محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي، شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب في مصر. (ينظر: الاعلام ٧/ ٦٨، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) – مصر – ١٩٦١– ٩٥/١١.

٣ وفاته الاولى: موته، والثانية: عجزه.

ما عَصى الحُبَّ حينَ أَطنَبَتِ الوا شونَ فيهِم وَلا أَطاعَ وُشاتَـه
سَرَّهُ ذِكرُهُم وَقَد ساءَهُ اللَـو مُ فَأَحياهُ عَذلُهُم وَأَماتَـه
قصَمَت شِدَّةُ الهُمومِ عُرى القَل بِ وَأَصدى مَرأى العِدى مِرآتَه
كَيفَ يفري الهُمومُ حَدَّ اِصطِباري بَعدَما فَلَّتِ الخُطوبُ شَباتَـه[1]

تبدو هنا الصنعة الجيدة والنظم الرائق، لأنه يخاطب شاعراً متميزاً، فلابد أن تكون قصيدته قوية، بيّن فيها أنّه صبّ مشتاق إلى رؤية صاحبه (ابن نباته)، لكن تأخر به زمانه وقرب أجله، وما يخشاه أن يموت قبل لقاء صاحبه، لذلك يعيش في قلق دائم ولا يستقر على شيء لضعفه وهزاله، بعدما كان قوياً صامداً لا يقبل وشايةً تفرق بينه وبين أحدٍ من أصحابه، والآن تمكنت منه الهموم وكثر أعداؤه، وقلّ ناصروه، فهو في اغتراب زماني يشكو أيامه، واستطاع من خلال قافية التاء المردفة بهاء ساكنة أن يدللّ على شدة معاناته مع تكرار حرف الشين خلال القصيدة، ولربما لها دلالات على اضطرابه وعدم استقرار حياته من خلال الكلمات (عيش – شملهم – شتاته – الواشون – وشاتة – شدة – شباته).

وبعدما كبر الحلّي وأخذ الموت يخطف أصحابه الواحد تلو الآخر، يحزن لفراقهم ويستذكر أيام الصِّبا مشيراً إلى غدر الزمان وزوال النعم، مهما عاش الإنسان في الخير، يقول راثياً صاحبه السيد النقيب محب الدين أبا الفوارس ابن الأعرج[2]: (الطويل)

صُروفُ اللَيالي لا يَدومُ لَها عَهدُ وَأَيدي المَنايا لا يُطاقُ لَهـا رَدُّ
تُسالِمُنا سَهواً وَتَسطو تَعَمُّـداً فَإِسعافُها عَسفٌ وَإِقصادُها قَصـدُ
عَجِبتُ لِمَن يَغتَرُّ فيها لِجَنَّـةٍ مِنَ العَيشِ ما فيها سَلامٌ وَلا بَـردُ
أَفي كُلِّ يَومٍ لِلنَوائِبِ غـارَةٌ يُشَقُّ لها الجَيبُ أَو يُلطَمُ الخـدُّ
أَرى كُلَّ مَألوفٍ يُعَجَّلُ فَقـدُهُ فَما بالُ فَقدِ الإِلفِ لَيسَ لَهُ فَقـدُ
فَقَدتُ رِجالاً كانَ في البُؤسِ بَأسُهُم هُوَ الظَهرُ لي وَالباعُ وَاليَدُ وَالزِندُ[3]

---

١ ديوانه ١/ ٥٤٠. شباته: حد كل شيء.
٢ ابن الأعرج: لم أعثر على ترجمته.
٣ ديوانه ٢/ ٦٤٩.

لا يأمن الشاعر صروف الدهر، والموت لا يمكن ردّه، قد ينعم المرء بيسر الدنيا، لكن عسرها يأتي دون إنذار، وقد كثرت مصائبه بفقد أصحابه، مشيراً إلى مسألة قديمة في التاريخ، في شق الجيوب ولطم الخدود على الموتى[١] وها هو يعيش في غربة زمانية بعدما كان يافعاً، ومن ثم فارق أصحابه، ويتساءل مشخصًا الجماد، قائلا:

سَأَلتُ حِمى الفَيحاءِ ما بالُ رَبعِها جَديباً وَقَد كانَت نَضارَتُهُ تَبدو
وَما بالُها لَم يُروَ مِن مائِها الصَدى لِظامٍ وَلا يوري لِقاصِدِها زَندُ
فَقالَت قَضى مَن كانَ بِالسَعدِ لي قَضى وَصَوَّحَ نَبتُ العِزِّ وَانهَدَمَ المَجدُ[٢]

يسأل الحلّي مدينته، ولربما السؤال لأهلها، وفيها مجاز مرسل، عن سبب جفاف مدينته بعدما كانت خضراء تزهو بجمالها، حتى ماؤها العذب تغير طعمه، ولم يسغ شرابه، ولم يسعف محتاجاً، فهو هنا يشرك الجمادات ويشخصها، لعله يشير إلى قضية خروجه من المدينة مضطراً، أو إلى وفاة صاحبه؛ لذلك تغيرت أحوال المدينة فمنذ لك اليوم ذهب عنها الأخيار، ويبس عشبها وذهبت نضارتها وانهدم مجدها الزاهي، في إشارة محتملة إلى مجد خاله عندما كان والياً على الحلة، وما آلت إليه الآن من تغير زماني أساء إلى المدينة حسبما يراه هو.

٤- **الاغتراب النفسي:** نوع آخر من الاغتراب، يصعب تحديده، لتعدد أنواعه، واختلاف مراميه، فبعضهم يربطه بالاضطرابات النفسية والقلق، عندما يشعر الفرد بالجفاء مع الآخرين[٣]، وآخرون يوضحون سبب إظهار القوة والافتخار، بما يلاقيه الفرد في مجتمعه من عداء ونكران للذات[٤]، في قضية نفسية يحاول خلالها أن يعوض ما افتقده في مجتمعه الأول، عليه كان الحلّي معززاً مكرماً بين أهله، ثم ترك مدينته فأثرت تلك الحالة على نفسه، وظل يعاني منها في غربته التي استمرت نصف قرن تقريباً محاولاً أن يعوض عما افتقده بافتخاره بقوته وشجاعته ونسبه ومركزه الديني وعلمه وشاعريته وغزله وغير ذلك من

١ ينظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي – د.شوقي ضيف- مصر- د.ت- ٢٠٧.
٢ ديوانه ٢/ ٦٤٩.
٣ ينظر: الاغتراب – سيرة ومصطلح – د: محمود غريب – القاهرة – ١٩٨٨- ٣٥.
٤ ينظر: مبادئ علم النفس العام – اميمة علي خان – جمال حسين الآلوسي- بغداد – ١٩٨٣- ٩٠.

الأمور؛ لذا صرح الحلّي مراراً عن أشياء تعوضه عما افتقده، كي يظهر أمام الآخرين – وهو في غربته– الحالات التي تجعل الممدوح ومن حوله ينظرون إليه نظرة تقدير واحترام، فهو في إحدى قصائده التي أرسلها إلى أهله – وهو مسافر– يفتخر بما فعله في واقعة الزوراء ثأراً لمقتل خاله: (الطويل)

سَلوا بَعدَ تَسآلِ الوَرى عَنكُمُ عَنّـي فَقَد شاهَدوا ما لَم يَرَوا مِنكُمُ مِنّـي
رَأوني أُراعي مِنكُمُ العَهدَ لي بِكُـم وَأَحسَنَ ظَنّاً مِنكُمُ بي بِكُم ظَنّـي
وَقَد كُنتُ جَمَّ الخَوفِ مِن جَورِ بُعدِكُم فَقَد نِلتُ لَمّا نالَني جَورُكُم أَمنـي
خَطَبتُ بِغالي النَفسِ وَالمالِ وُدَّكُـم فَقَد عَزَّ حَتّى باتَ في القَلبِ وَالذِهنِ
وَلَمّا رَأَيتُ العِزَّ قَد عَزَّ عِندَكُـم وَلا صَبرَ لي بَينَ المَنِيَّةِ وَالمَـنِّ
ثَنَيتُ عِناني مَع ثَنائي عَلَيكُـمُ فَأَصبَحتُ وَالثاني العِنانَ هُوَ المُثني[1]

يخاطب الحلّي أهله، وهو بعيد عنهم، أن يسألوا من شهدوا المعركة؛ ليعلموا ماذا فعل بالأعداء، ليبرهن للأعداء شدته وتحمّله للصعاب، هذا واستعمل الصنعة والبديع كثيراً في قصيدته؛ ليدلل على تمكنه وقدرته في الشعر مع الحرب أيضاً، فهو في الحالتين متمكن، كما نلاحظ كثرة توظيفه حروف الجر مثلاً (عنكم– عني– منكم – مني – لي– لكم – بي– بكم) وكثرة التصرف بالفعل ومشتقاته مثلاً (سلوا– تسال– ظناً– ظني– نلت– نالني– المنية– المن– ثنيتُ– ثنائي الثاني – المثني) وكلها لها دلالات إيقاعية متناسقة تظهر بها براعته في التصرف بالأسماء والأفعال والحروف مع مراعاة الوزن والقافية؛ بذلك أصبح اغترابه عن أهله من المسائل التي عاني منها كثيرًا، لكنها كانت فرصته الأخيرة لينجو بنفسه وأهله من حروب مدمرة، على الرغم من شوقه إلى أهله وأرضه مما تركت في نفسه جرحاً كبيراً لا يندمل عوضّ عنها بهذا الافتخار وغيره، فهو يسير في البيداء وحيداً لا يهاب أحداً، ويستمر فيقول:

وَما زالَ عزمي يَقتَضيني إلى العُلا فَتسبُقُ حَتّى جاءها الأذن بِـالأُذنِ
وَزُرتُ مُلوكاً كُنتُ أَسمَعُ وَصفَهُم فَيُنهِضُني شَوقي وَيُقعِدُني أَمنـي
فَلَمّا تَلاقَينا وَقَد بَرِحَ الجَفـا رَأَت مُقلَتي أَضعافَ ما سَمِعَت أُذنـي

١ ديوانه ١/ ٦٤

خَطَبتُ بِوُدّي عِزهُم لاهِباتِهِـــم فَأَصبَحتُ بِالعِزِّ المُمَنَّعِ في حِصــنِ[١]

هذه الغربة النفسية جعلته يبحث عن المنزلة العالية والرفعة التي افتقدها في موطنه، فولى وجهه يبحث عنها لدى الملوك الذين زارهم، ولقي عندهم تقديراً واحتراماً وكبيراً؛ لأنه أراد العزّ لا المال، أي لم يتكسب بشعره ولعلّه يسير على وفق خطى المتنبي الذي قضى حياته مغترباً يبحث عن الجاه والمنزلة، وكلها دلالات تشير إلى غربته النفسية، يريد أن يعوض ما افتقده في مدينته الحلّة، فقد افتخر بقوته وشاعريته وبين منزلته لدى الملوك والرؤساء؛ لذلك يعرض في القصيدة نفسها أكثر من حالة يفتخر بها ويرد على الأعداء والشامتين، يقول:

تُعَيِّرُني الأَعداءُ بِالبَينِ عَنكـــمُ وَما كانَ حُكمُ الدَهرِ بِالبَينِ عَن إِذني
وَتَزعُمُ أَنَّ الشِعرَ أَسنى فَضائِلـــي وَتُنكِرُ أَفعالي وَقَد عَلِمَت أَنـــّي
وَقَد شاهَدَت نَثري وَنَظمِيَ في الوَغى لِهامِ العِدى وَالنَحرِ بِالضَربِ وَالطَعنِ
وَإِن كانَ لَفظي يَخرُقُ الحُجبَ وَقعُهُ وَيَدخُلُ أُذنَ السامِعينَ بِـــلا إِذنِ[٢]

يعترف الحلي بقدرة العدو الذي أبعده عن أهله لكنه يبين فضائل ذاته ، منها بطولاته وضرب العدو في ساحة المعركة، ويفتخر بأن كلامه شعراً كان أم نثراً له وقع حسن في النفوس، ويدخل القلوب بسهولة، كل ذلك ليشعر الأَعداء ولاسيَّما أَنَّه باقٍ ومستمر في عمله وبالمنزلة نفسها، ويستمر في قصيدته قائلًا:

فَإِن حَسَدوا فَضلي وَعابوا مَحاسِني فذَلِكَ لِلتَقصيرِ عَنها وَلِلضِغـــنِ
وَتِلكَ –لَعَمري– كَالنُجومِ زَواهِـــرٌ تُقِرُّ بِها الحُسّادُ رَغماً عَلى غَبـنِ
مَحاسِنُ لي مِن إِرثِ آلِ مَحاسِـــنٍ وَهَل تَمَرّ إِلّا عَلى قَدَرِ الغُصـــنِ
أَظَلُ وَأُمسي راقِدَ الجارِ ساهِـــراً سَوامِيَ في خَوفٍ وَجارِيَ في أَمنِ
كَأَنَّ كَرى عَينَيَّ سَيفُ اِبنِ حَمـزَةٍ إِذا اِستُلَّ يَوماً لا يَعودُ إِلى الجَفنِ[٣]

---

١ م.ن ١/ ٦٥.
٢ م.ن ١/٦٥.
٣ م.ن ١/٦٦

بعد هذه الصفات التي امتاز بها الحلي من الشجاعة والعلم والمنزلة العالية، وهي صفات تُغيض الحساد، ذلك أن "الشخص المتفوق المرهف المبدع، يجد نفسه غريباً بين أوساط من الناس تتجاذبهم الأطماع والأهواء"[١] على أنَّ أفعال الشاعر واضحة وضوح الشمس، فهو يستمد عزيمته من أجداده آل محاسن من قبيلة طيء المعروفة، مشبهاً تلك المنزلة بالشجرة المثقلة بالثمار في صورة بصرية واضحة، والمتمثلة: بتفاني عشيرته وحماية الجار والسهر عليهم، وفي صورة تشبيهية أخرى عندما شبه تلك الحميّة بسيف خاله الشهيد – ابن حمزة– إذا استُل لا يعود إلى غمده إلّا بعد ردّ الحقوق لأصحابها، وهي جميعها صور أخرى من صور الاغتراب النفسي يعوّض من خلالها ما افتقده من غبن المتجاوزين أي أنّ "هذه النزعة تظهر بين حين وآخر عند بعض الشعراء كمظهر اجتماعي يؤمن لهم توازناً نفسياً في وجه احباطات الحياة أو اغترابها المفروض"[٢]. وكثيرا ما افتخر الحلّي بشعره وقوة إحساسه، لبيان فضله أمام الممدوحين والناس، منها قصيدته التي مدح بها صاحب ماردين الملك المنصور بعد وفاة أخيه الملك العادل (البسيط):

لَولاكُمُ لَم يَكُن في الشِعرِ لي أَرَبٌ وَلا بَرَزتُ بِهِ مِن خَزنِ تامـــورِ[٣]
فَضيلَةٌ نَقَصَت قَدري زِيادَتُهـا كالاسم زيدَت بِهِ ياءٌ لِتَصغـــيرِ
لَكِنَّني لَم أُهِن حِرصاً نَفائِسَهـا كَمُرخِصِ الشِعرِ في مَدحِ اِبنِ مَنصورِ
مَكانَةُ النَفسِ مِنّي فَوقَ مُكنَتِهـا مِنَ النُضارِ وَقَدري فَوقَ مَقـــدورِ
لَكِن تَأَخَّرَ بي عَصري وَقَدَّمَ مَـن قَد كانَ قَبلِيَ من ماضي الأَعاصيـرِ
كَأَنَّني مِن رُقومِ الهِندِ أَوجَبَ لـي عُلُوَّ مَرتَبَتي إِفراطُ تَأخيـــري
فَاِستَجِلِ بِكرَ قَريضٍ لا صَداقَ لَها سِوى القَبولِ وَوُدٍّ غيرِ مَكفـــورِ
عَلى أَبِي الطَيِّبِ الكوفِيِّ مَفخَرُها إِذ لَم أُضِع مِسكَها في مِثلِ كافـورِ[٤]

١ الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي– عزيز السيد جاسم– بغداد – ط٢– ١٩٨٧– ٣٥.
٢ الاغتراب في الشعر الأندلسي ١٨٢.
٣ التامور: النفس.
٤ ديوانه ٢٥٥/١.

بعدما مدح الملك المنصور أشار إلى قوة شعره الذي نظمه في مدح المنصور وأمثاله، فهو لا يضع شعره في غير محلّه؛ لأنَّ زيادة هذا الشعر يقلل من قيمته، مثل (ياء التصغير) عندما يضاف إلى الاسم عند تصغيره، فهو لم يُهن شعره؛ لأنه يمدح به من يستحق هذا المدح، فعزة نفسه فوق كل شيء، وهذا الافتخار " يمكن أن تعد ظاهرة اغترابية، فهل كان الشاعر يؤمن من أعماقه بأن الممدوح يستحق فنياً أن يكون هو المحكمة الفنية الحاكمة أم أنه كان مضطراً لإثبات ذاته أمام محكمة فنية قاهرة"[١] هذا الأمر جعله يفتخر بأنه من خيرة الشعراء وأفضلهم، لكن ما يميز الآخرين أنهم سبقوا عصره، ووجدوا احتراماً وتقديراً ممن عاصرهم، وهو في هذا البيت قد استفاد من بيت أبي العلاء المعرّي (ت ٤٩٩ هـ) بقوله:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانَهُ لَآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ[٢]

وقيمة شعره تزداد يوماً بعد يوم، كتلك النفائس القديمة التي يعتز بها أصحابها، مشبهاً نفسه وشعره بالآثار الهندية الفاخرة، وزاد عليها أنه لم يضع أشعاره إلّا في الذي يستحقه، عكس ما فعله المتنبي عندما أرخص شعره ومدح كافور الأخشيدي، ومن ثم ندم على ذلك فهجاه[٣]. هذا الأمر جلب انتباه أحد الدارسين بقوله: " فكان استحضار المتنبي وممدوحه كافور الأخشيدي (ت ٣٥٧ هـ) في خاتمة القصيدة بمثابة مركز دلالي يختزل المعاني....، لذا نجد الشاعر يكتفي بمفاخرة المتنبي من جانب المقول فيه / الممدوح دون التصريح بالجانب الفني /، استغلالا للقيمة المعنوية التي تناسب موقفه، وتجعله مرتبطاً بالماضي"[٤]. كل هذا التأكيد لِيُسمِعَ الناس أنَّه ازداد قدراً وقيمةً بعد تركه دياره ومتباهياً أمام الآخرين في مسألة نفسية اعتبارية.

---

١ الاغتراب في الشعر الأندلسي ١٧٧.

٢ ديوان سقط الزند- لابي العلاء المعري (ت ٤٩٩هـ) – شرح وتحقيق : الدكتور ن. رضا – بيروت – ١٩٦٥- ٥٦.

٣ ينظر: شرح ديوان المتنبي ١٣٩/٢.

٤ التناص في شعر صفي الدين الحلّي ١٥٨.

تكرر هذا الافتخار عند الحلّي بصور عدّة، ليدلل على أن الأرض ملك لله سبحانه وتعالى، يرحل إليها المرء إذا ضاق عليه محله؛ ليخفف عن نفسه ألم الفراق والغربة التي أعلن عنها مراراً – كما أسلفنا– يقول في إحدى قصائده مادحاً الملك الصالح بن الملك المنصور: (الطويل)

لَقَد ظَلَّ يُصميني الزَمانُ لِبُعدِهِ وَيُحزِنُ قَلبي مِنهُ ما كانَ يُفرِحُ
فَقُلتُ لِصَرفِ الدَهرِ ها أَنا راحِلٌ إلى ملك بيني وبينك يصلح
إِلى مَلِكٍ تخفى المُلوكَ فَيَجتَلي وَتُغلَقُ أَبوابُ السَماحِ فَيُفتَحُ
إِلى مَلِكٍ لا مَوردُ الجودِ عِندَهُ أُجاجٌ وَلا مَرعى السَماحِ مُصَوِّحُ[1]
إِلى مَلِكٍ يَلقى الثَناءَ بِمِثلِهِ وَيُنعِمُ مِن بَعدِ السماح وَيَسمَحُ
إِلى ملِكٍ لا زالَ لِلمَدحِ خاطِباً وَزادَ إلى أَن كادَ لِلمَدحِ يَمدَحُ[2]

يشير إلى غدر الزمان في بعده عن أهله ومعاناته، على أنَّه لم يستسلم؛ فرحل إلى ملك يصلح بينه وبين الزمان، ويظهر عند الملمات والشدائد، فيبسط يديه بالسماح، والجود لا ينضب عنده، فمرعاه خصب لا يَبْس فيه، لذا تراه يستمع دائماً إلى شكوى الناس، فوجد عنده مأربه، وراحة باله، كي لا يفرح أعداؤه ويظنون أنه يعيش في كدر بعد رحلته، في دلالة نفسية يروّح بها ما عاناه في غربته، فهو مهما وجد من الطيب والجود والأمان، فهي لا تساوي عنده قيمة بقائه بين أهله في أرضه. وكان تكرار لفظه (ملك) دلالة على إشعار الآخرين بمكانته العالية، وبيان فضل ممدوحه؛ لينال المنزلة التي يريدها وتهدأ نفسه المضطربة.

ويحاول الحلي أحياناً أن ينسى أحزانه وأزماته النفسية، فينظم أشعاراً في موضوعات أخرى كالغزل أو الخمرة أو الصيد والطرد ترويحاً لما يعانيه؛ وليبرهن أيضًا أنه وجد بديلاً ملائماً، لكن تصدر منه –أحياناً– بعض الألفاظ التي تدل على ارتباطه

١ مصوِّح: جاف.
٢ ديوانه ٣١٦/١.

بأرضه وأهله، ففي إحدى مرثياته التي رثى بها فخر الدين عثمان ملك الأمراء[١]، يدعو إلى التصبر وعدم البوح بما في نفسه خوفاً من شماتة الأعداء، يقول: (الوافر)

كَذا فَليَصبِرِ الرَجُلُ النَجيبُ إِذا نَزَلَت بِساحَتِهِ الخُطوبُ
يَسُرُّ النَفسَ ثُمَّ يُسِرُّ حُزناً يَضيقُ بِبَعضِهِ الصَدرُ الرَحيبُ
وَيُبدي اليَأسَ لِلأَعداءِ كيلا تُؤَنِّبَهُ الشَوامِتُ أَو تَعيبُ[٢]

فهو يُظهر السرور أمام الآخرين، بينما يُخفي في داخله حزناً كبيراً لما آل إليه حاله. كذلك نجده يتغزل أحياناً ليُبدي أمام الآخرين قلة معاناته، وأنَّه يعيش في أمن وراحة بال، كقوله: (البسيط)

إِلى مُحَيّاكَ ضَوءُ البَدرِ يَعتَذِرُ وَفي مَحَبَّتِكَ العُشّاقُ قَد عُذِروا
وَجَنَّةُ الحُسنِ في خَدَّيكَ موثَقَةَ وَنارُ حُبِّكَ لا تُبقي وَلا تَذَرُ
يا مَن يَهُزُّ دَلالاً غُصنَ قامَتِهِ الغُصنُ هَذا فَأَينَ الظِلُّ وَالثَمَرُ
ما كُنتُ أَحسَبُ أَنَّ الوَصلَ مُمتَنِعٌ وَأَنَّ وَعدَكَ بَرقٌ ما بِهِ مَطَرُ
خاطَرتُ فيكَ بِغالي النَفسِ أَبذُلُها إِنَّ الخَطيرَ عَليهِ يَسهُلُ الخَطَرُ
لَمّا رَأَيتُ ظَلامَ الشَعرِ مِنكَ بَدا خُضتُ الظَلامَ وَلَكِن غَرَّني القَمَرُ[٣]

يبيّن الحلّي تعلقه بهذا المحبوب الذي يبدي دلالاً وامتناعاً، وهي كثيرة في أشعاره، ولعله أراد منها قدرته وتمكنه على كسب قلوب الآخرين، في مسألة نفسية، أو لعله أراد بهذا الغزل أموراً أخرى نجهلها، وربما قصد بها حبه وتعلقه بأرضه وأهله. كما وصف البرك والرياض والحدائق، منها قوله في وصف عين البرود[٤] في ماردين: (الخفيف)

خَلَياني أَجُرُّ فَضلَ بُرودي راتِعاً في رِياضِ عَينِ البُرودِ
كَم بِها مِن بَديعِ زَهرٍ أَنيقٍ كَفُصولٍ مَنظومَةٍ وَعُقودِ

١ لم أعثر على ترجمته.
٢ ديوانه ٦٨٠/٢.
٣ م.ن ٢/ ٧٩٦.
٤ لم أعثر على ترجمتها.

زَنبَقٌ بَينَ قُضبِ آسٍ وَبانٍ وَأَقاحٍ وَنَرجِـــسٍ وَوُرودِ
كَجَبينٍ وَعارِضٍ وَقَـوامٍ وَثُغورٍ وَأَعيُنٍ وَخُـــدودِ[1]

يدعو إلى التمتع بهذا الجمال الرائع وفي ها الجوّ البهي من خلال وروده التي أشار إليها، مشبهاً إياها بالثغور والخدود، دلالة على حسن مجلسه ومقامه في ماردين، وكانت البداية بلفظة (خليلي) دلالة على تركه الهموم والمتاعب التي يعانيها؛ ليتمتع بالدنيا وما هو مسموح له بعدما فقد موطنه وبلغ الاغتراب في نفسه مبلغًا كبيرًا.

١ ديوانه ٢/ ١٠٢٦.

الخاتمة:

من خلال دراسة موضوع الاغتراب في شعر صفي الدين الحلّي تبين أن الاغتراب موقف فكري ونفسي واجتماعي من الوجود والإنسان والحياة ورؤية للكون تخالف السائد والمألوف، عبر عنها الحلّي خير تعبير، وكان موضوعاً مهما من موضوعات شعره، نستخلص منها جملة من الأمور، وهي:

١- صوَّر الحلّي من خلال الاغتراب واقع العصر وظروفه.

٢- نظم معظم أشعاره في الاغتراب على البحور الطويلة، كالطويل والبسيط والخفيف والكامل وغيرها.

٣- كما نظم شعره هذا على القوافي السهلة الميسورة كاللام والميم والنون والراء والباء وغيرها.

٤- عبّر عمَا في نفسه خير تعبير، وظهرت شجاعته في إعلان حالات الاغتراب والقهر الذي وجده أمام المسؤولين دون خوفٍ أو وجل.

٥- تمكن من نظم أشعاره على وفق الحالة النفسية والجوّ الذي عرض خلالها، فأحياناً نجد الصنعة واضحة، وأخرى نجد أشعاراً خالية من الصنعة، وأجاد فيهما جميعها.

٦- أعلن الحلي عن اغترابه من خلال قصائد ومقطعات كاملة، وأحياناً ضمن غيرها من الموضوعات.

٧- لم يأخذ الحلي حظه من الدراسة كغيره من المتميزين من الشعراء.

Alienation in the Poetry of Safi al-Din al-Hilli (d. 750 AH)

Ahmed Hussein Mohammed Al-Sadani *

Abstract

Safi Al-Din Al-Hilli is one of the knights' poets. He participated in the battle of Zawra (Iraq) in revenge for his uncle, then he went to Mardin and praised its kings. He was proficient in all poetry topics. He lost several of his companions and what he had of authority and power, then he felt his distance from the home of his youth remembering the pride of his family when they were masters of Hilla, especially after he became aged and lost losing some of his rights, all of this made his social alienation Spatial, temporal and psychological in his independent poems and syllables with emotional expressions that indicates his ability in poetry with his style, so he explained us the reality of the age and its circumstances.

Key words: loss, psychological, rights**.**

* **Prof/Al-Noor University College/Bartella.**